تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثامن

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الثامن

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

قبلا : مواجهة ومعاينة؛ وقيل إن واحده قبيل كرغف ورغيف ـ أى قبيلا قبيلا وصنفا صنفا أى كل صنف منه على حـدة . قال ابن عباس : كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان ـ الإيحاء : الإعلام بالأشياء من طريق خفى سريع كالإيماء، والزخرف : الزينة كالأزهار للرياض والذهب للنساء وما يصرف السامع عن الحقائق

إلى الأوهام ـ والغرور : الخداع بالباطل ـ صغِى إليه : كرضى يصغى : مال ، ومثله أصغى ـ ويقال صغْى فلان وصغوه معك : أى ميله وهواه كما يقال ضلعه معك ، واقترف المال: اكتسبه ، والذنب: اجترحه ـ والعدو : ضد الصديق ـ ويستعمل للواحد والجمع والمذكر والأنثى . قال تعالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ » .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السابقة أن مقترحى الآيات الكونية أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وبما تدل عليه من صدق الرسول فى دعوى الرسالة ، وأن المؤمنين كانوا يودون لو أجيب اقتراحهم ظنا منهم أن ذلك مفضٍ إلى أيمانهم ، وذكر لهم خطأهم بقوله : « ومايشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » فأفاد أن سنته فيهم وفى أمثالهم من المعاندين أنهم إذا رأوا آية تدل على خلاف مايعتقدون نظروا إليها نظرة إنكار وجحود وحملوها على أنها إما خديعة وسحر ، وإما أنها من أساطير الأولين .

ذكر هنا ماهو أبلغ من ذلك وفصل الإجمال الماضى فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » فأيأس النبى صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، ولو جاءهم بكل آية وأتى لهم بكل دليل .

الإيضاح

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وسمعوا بآذانهم شهادتهم لك بالرسالة .

(وكلمهم الموتى) بأن نحييهم لهم ونجعلهم حجة على صدق ماجئت به من الرسالة .

(وحشرنا عليهم كل شىء قبلا) أى وجمعنا كل شىء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى وأرسلناه إليهم معاينة ومواجهة ليكون ذلك دليلا على صحة دعواك

(ما كانوا ليؤمنوا) أى ما كان شأنهم ، ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا ـ ذلك لأنهم لاينظرون فى الآيات نظر هداية واعتبار ، وإنما ينظرون إليها نظر العدو إلى من يعاديه ، لا نظر الولى إلى من يعينه ويواليه ، فيخيل إليهم الوهم أن ماجئتهم به لايهديهم إلى سواء السبيل وإنما تسحر به عقولهم وتسلب به ألبابهم .

(إلا أن يشاء الله) أى لكن ان شاء الله إيمان أحد منهم آمن ـ والمراد أنهم ماداموا على صفاتهم التى هم عليها من اقتراح الآيات فهم لايؤمنون ـ لكن ان شاء الله أن يزيلها فعل .

والخلاصة : إن فقد هؤلاء الاستعداد للايمان ، جار على حسب مشيئته تعالى كـكل ما يجرى فى الوجود ، ولو شاء غير ذلك لكان ، ولكنه لايشاء لأنه تغيير لسنته وتبديل لطباع الانسان .

(ولكن أكثرهم يجهلون) أى ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم سنة الله تعالى فى عباده وانطباقها على الأفراد والجماعات ، لذلك يتمنى بعض المؤمنين لو يؤتى مقترحو الآيات ما اقترحوا ظنا منهم أن ذلك يكون سبب إيمانهم ، مع أن الآيات لاتلزمهم الإيمان ولا تغير طباع البشر فى اختيار مايترجح لدى كل منهم على حسب مايؤديه إليه فكره وعقله : ولو شاء الله لخلق الإيمان فى قلوبهم خلقا بحيث لايكون فيه عمل ولا اختيار ـ وحينئذ لايكونون محتاجين إلى الرسل ، كما أنه لو شاء ـ جعل الآيات مغيرة لطبائع البشر وملزمة لهم أن يؤمنوا ، فيكون الإيمان إلجاء وقسرا، لااختيارا وكسبا ، ولكنه لم يشأ ذلك بدليل قوله تعالى: « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » قال ابن عباس كان المستهزئون بالقرآن خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومى ، والعاصى بن وائل السهمى ، والأسود بن يغوث الزهرى ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن حنظلة . أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من أهل مكة وقالوا أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله ،

أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم (أحق ماتقول أم باطل؟) أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا ، فنزلت الآية .

ثم أراد بعدئذ تسلية نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان أن سنته فى الخلق أن يكون للنبيين أعداء من الجن والانس فقال :

(وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن) أى كما جعلنا هؤلاء ومن لفَّ لِفَّهم أعداء لك جعلنا لكل نبى جاء قبلك أعداء هم شياطين الإنس والجن — قال مجاهد وقتادة والحسن : إن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين — وأيده ابن جرير بما رواه أبو ذر ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له عقب صلاة : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال قلت يارسول الله : وهل للانس شياطين ؟ قال نعم » . وجاء فى سورة البقرة (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) الآية .

ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء : أن سنة الله قد جرت بأن يكون الشرير الذى لاينقاد للحق كبرا وعنادا أو جمودا على ماتعود — عدوا للداعى إليه من الأنبياء ، وورثتهم وناشرى دعوتهم ، وهكذا الحال فى كل ضدين يدعو أحدهما إلى خلاف ماعليه الآخر ، فى الأمور الدينية أو الاجتماعية ، وهذا مايعبر عنه بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التى تدعو إلى التنافس والجهاد وتكون العاقبة انتصار الحق ، وبقاء الأمثل الأصلح كما قال تعالى : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَايَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ) فالحياة جهاد لايثبت فيه إلا الصابرون المجدون ، وليس العمل للآخرة إلا كذلك ، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ)

ثم بين بعدئذ أشر ضروب عداء هؤلاء الشياطين ، وهو مقاومة الهداية والدعوة فقال .

(يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) أى يلقى بعضهم إلى بعض القول المموه الذى به يظنون أنهم يسترون قبيح باطلهم و يؤدونه بطرق خفية لايفطن إلى باطلها كل أحد حتى يغروا غيرهم ويخدعوه ويميلوه إلى مايريدون .

وأول مثل لهذا الغرور ما وسوس به الشيطان للانسان الأول وزوجه الكريم (آدم وحواء) فزين لها الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها كما قال: (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) .

وهكذا يوسوس شياطين الإنس والجن لمن يجترحون السيئات و يرتكبون المعاصى فيزينون لهم مافيها من عظيم اللذة والإطلاق والحرية ، ويمنونهم بعفو الله ورحمته ، وشفاعة أنبيائه وأوليائه حتى ليترنم أحدهم بقوله :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد ربا غفورا

(ولو شاء ربك مافعلوه) أى ولو شاء ربك ألا يفعلوا هذا الغرور مافعلوا ، ولكنه لم يشأ أن يغير خلقهم أو يجبرهم على خلاف ماتزينه لهم أهواؤهم ، بل شاء أن يكون الإنس والجن على استعداد لقبول الحق والباطل والخير والشر ، وأن يكونوا مختارين سلوك أى الطريقين كما قال « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

(فذرهم وما يفترون) من الكذب ويخترعون من الإفك ، صرفا للناس عن سبيل الحق ، وسعيا فى إضلالهم وصدهم عن طريق الرشاد ، وامض لشأنك كما أمرت فعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء ، وسترى سنتنا فيهم وفى أمثالهم ، وقد أراه عاقبة أمرهم فأهلك المستهزئين بالقرآن ونصره على أعدائه المشركين (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) .

(ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) أى يوحى بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المموه من القول ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنوهم عن دينهم ، ولتميل إليه قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، لأنه الموافق لأهوائهم ؛ إذ هم يميلون إلى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ، ومموهات الأباطيل .

أما الذين ينظرون إلى عواقب الأمور فيعلمون بطلانها ، فلا تغرنهم تلك الزخارف ولا تعجبهم تلك الأباطيل .

(وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) أى وليترتب على ذلك أيضا أن يرضوه لأنفسهم بلا بحث ولا تمحيص فيه ، وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصى ماهم مكتسبون بغرورهم به ورضاهم عنه .

أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) .

شرح المفردات

الحكم : من يتحاكم إليه الناس ويرضون حكمه ـ مفصلا : مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام ، إلى غير ذلك من الأحكام ـ الممترين : المترددين الشاكين ، والكلمة هنا : القرآن ، وتمام الشيء ، كما قال الراغب : انتهاؤه إلى حد لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه ، وتمامها هنا : أنها كافية وافية فى الإعجاز والدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصدق : يكون فى الأخبار ومنها المواعيد ، والعدل : يكون فى الأحكام . والتبديل : التغيير بالبدل .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى سابق الآيات ، أن الذين اقترحوا الآيات الكونية ، وأقسموا بأنهم يؤمنون إذا جاءتهم ـ كاذبون فى أيمانهم ، وأنهم ماهم إلا من شياطين الإنس الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وأن دأبهم صرف الناس عن اتباع الحق ، وتزيين الباطل ، فيغتر بهم من لا يؤمن بالآخرة ويرضى بهم لموافقتهم أهواءه .

ذكر هنا الآية الكبرى ، وهى القرآن الكريم فهو أقوى الأدلة على رسالة نبيه من جميع ما اقترحوا ، ومنزّله هو الذى يجب الرجوع إليه فى أمر الرسالة ، واتباع حكمه فيها ، دون أولئك الضالين المبطلين ، من شياطين الإنس والجن .

الإيضاح

(أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) أى ليس لى أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزه؛ لأنه لاحكم أعدل من حكمه، ولا قائل أصدق منه ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، فيه كل ما يصح به الحكم ، و إنزاله مشتملا على الحكم التفصيلى للعقائد والشرائع وغيرهما على لسان رجل منكم هو أكبر دليل وأظهر آية على أنه من عند الله ، لا من عنده ، كما جاء فى قوله : « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ » .

والخلاصة — إنكم تتحكمون فى طلب المعجزات لأن الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد حصل بوجهين :

(١) إنه أنزل إليكم الكتاب المفصل المشتمل على علوم كثيرة ، بأسلوب قد عجز الخلق عن معارضته ، فيكون هذا دليلا على أن الله قد حكم بنبوته .

(٢) ما ذكر بعد ، من أن التوراة والإنجيل تشتملان على الآيات الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول حق وأن القرآن كتاب حق من عند الله .

(والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أى إن أنكر هؤلاء المشركون أن يكون القرآن حقا وكذبوا به ، فالذين أعطيناهم الكتب المنزلة من قبله كعلماء اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق .

ذلك أنهم يعلمون أنه من جنس الوحى الذى نزل على أنبيائهم وأن أوسع البشر علما لا يستطيع أن يأتى بمثله ــ إلى أن كتبهم تشتمل على بشارات بذلك النبى لم تكن

لتخفى على علمائهم فى عصر التنزيل كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرتهم من أهل الكتاب فآمنوا ، وأنكر بعضهم الحق وكتمه بغيا وحسدا فباء بالخسران المبين .

(فلا تكونن من الممترين) الخطاب إما للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره على طريق التعريض كقوله : « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وتقدم الكلام على مثل هذا ، وإما له والمراد النهى عن الشك فى أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق — أو الخطاب لكل من يتأتى منه الامتراء على مثال قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ » .

(وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) قد تطلق الكلمة على الجملة والطائفة من القول فى غرض واحد ؛ فإذا كتب أحد أو خطب فى موضوع مّا قيل كتب أو قال كلمة ، وكانوا يسمون القصيدة كلمة ، وقالوا كلمة التوحيد يعنون (لا إله إلا الله) والمراد بها هنا ما أريد بها فى قوله : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

والمعنى — وتمت كلمة ربك فيما وعدك به من نصرك ، وأوعد به المستهزئين بالقرآن من الخذلان والهلاك ، كما تمت فى الرسل وأعدائهم من قبلك كما قال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

وتمامها صدقا هو حصولها على الوجه الذى أخبر به ، وتمامها عدلا باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون ، والمؤمنين بما يستحقون أيضا ، وقد يزادون على ذلك فضلا من الله ورحمة ، والمراد بالخبر هنا تأكيد ما تضمنته الآيات من تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عن كفر هؤلاء المعاندين وإيذائهم له ولأصحابه ، وإيئاس الطامعين من المسلمين فى إيمانهم حين إيتائهم الآيات المقترحة .

وخلاصة المعنى — كما أن سنتى قد مضت بأن يكون للرسل أعداء من شياطين الإنس والجن ، تمت كلمتى بنصر المرسلين وخذلان الأعداء المفسدين .

(لا مبدل لكلماته) أى إن كلمة الله فى نصرك وخذلان أعدائك قد تمت وأصبحت واقعة نافذة حتما لا مرد لها لأن كلمات الله لا مبدل لها ، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يزيلها بكلمات أخرى تخالفها وتمنع صدقها على من وردت فيهم ، كأن يجعل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا ، أو بصرفهما وتحويلهما عن الموعود بالثواب أو الموعد بالعقاب إلى غيرهما ، أو يحول دون وقوعهما .

والخلاصة - إنه لا مغيّر لما أخبر عنه من خبر أنه كائن فيبطل مجيئه ، وكونه على ما أخبر جل ثناؤه .

(وهو السميع العليم) أى إنه تعالى سميع لتلك الأقوال الخادعة عنهم ، عليم بما فى قلوبهم من المقاصد والنيات ، وبما يقترفون من الذنوب والسيئات .

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١).

المعنى الجملى

بعد أن أجاب سبحانه عن شبهات الكفار وبين بالدليل صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم - ذكر هنا أنه لا ينبغى الالتفات إلى ما يقوله هؤلاء الجهال لأنهم يسلكون سبيل الضلال والإضلال ، ويتبعون الظنون الفاسدة الناشئة من الجهل والكذب على الله ، فلا ينبغى الركون إليهم والعمل بآرائهم .

وفى سياق الحديث ذكر أن أكثر الأمم فى عهد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كانوا ضلالا يغلب عليهم الشرك ؛ بعد أن أبان ضلال مشركى العرب ومن على شاكلتهم فى عقائدهم ، ثم أردف ذلك ، ببيان مسألة هامة لها خطرها وهى من أصول الشرك ، تلك هى مسألة الذبائح لغير الله .

الإيضاح

(وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) أى وإن تطع أحدا من الكفار بمخالفة ما شرعه الله ، وأودعه كلماته المنزلة عليك ، يضلوك عن الدين الحق ، وعن نهج الصواب ، فلا تتبع أنت ومن اتبعك حكما غير الذى أنزل إليك من الكتاب مفصلا ، فهو الهداية التامة الكاملة ، فادع إليه الناس كافة .

(إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون) الخرص : القول بالظن قول من لا يستيقن ، أى إن هؤلاء لا يتبعون فى عقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذى ترجحه له أهواؤهم - وماهم إلا يخرصون فى ترجيح بعض منها على بعض ، كما يخرص أرباب النخيل والكروم ثمرات نخيلهم ، وأعنابهم ، ويقدرون ما تجود به من التمر والزبيب تخمينا وحدسا دون تحقيق لذلك ، ولا برهان على ما يقولون فهم يكذبون

على الله فيما ينسبونه إليه من اتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان ذريعة إليه ، وتحليل الميتة والبحائر ونحو ذلك .

وتاريخ تلك العصور يؤيد الحكم القطعى الذى فى الآية من ضلال أكثر أهل الأرض ، واتباعهم للخرص والظن ؛ فأهل الكتاب قد تركوا هداية أنبيائهم ، وضلوا ضلالا بعيدا ، وكذلك الأمم الوثنية ، التى كانت أبعد عهدا عن هداية الرسل والأنبياء .

وهذا من علم الغيب الذى أوتيه ذلك النبى الأمى ، وهو لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا النذر اليسير من شئون الأمم المجاورة لبلاد العرب .

ثم أكد الجملة السابقة زيادة فى التحذير فقال :

(إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك الذى رباك وعلمك بما أنزله إليك ، وبين لك مالم تكن تعلم من الحق ومن شئون الخلق ـ هو أعلم منك ومن سائر عباده ، بمن يضل عن سبيله القويم وبمن هو من المهتدين ، السالكين صراطه المستقيم ، ففوض أمرهم إلى خالقهم فهو العليم بالضال والمهتدى ، ويجازى كلا بما يليق بعمله .

وبعد أن أبان لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أكثر أهل الأرض يضلون من أطاعهم ، لأنهم ضالون خراصون ، وأنه تعالى هو العليم بالضالين والمهتدين ـ أمر الله رسوله وأتباعه بمخالفة أولئك الضالين ، من قومهم ومن غيرهم فى مسألة الذبائح وترك جميع الآصار والآثام ، فقال :

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) أى إذا كان حال أكثر هؤلاء الناس ما بينته لكم من الضلال فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح دون غيره ، إن كنتم بآياته التى جاءتكم بالهدى والعلم مؤمنين ، وبما يخالفها من الضلال والشرك مكذبين .

وقد كان مشركو العرب وغيرهم من أرباب الملل والنحل يجعلون الذبائح من أمور العبادات ويقرنونها بأصول الدين والاعتقادات فيتعبدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومن قدسوا من رجال دينهم ، ويهلّون لهم عند ذبحها ، وهذا شرك بالله ، لأنه عبادة يقصد بها غيره سواء سموه إلهاً أو معبودا أو لم يسموه ، وقد وقع كثير من المسلمين فى مثل ما كان عليه أولئك الضالون المشركون من مشركى العرب وسواهم فذبحوا باسم بعض الأولياء والصالحين ، وسيّبوا لهم السوائب ، فتراهم ينذرون العجول والخراف للسيد البدوى وغيره من أرباب الأضرحة والقبور ممن يستشفعون بهم إلى ربهم فى زعمهم ، وهذا شرك صريح .

(وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يقولون مالك ألا تفعل كذا ، على معنى وأى شىء يمنعك من ذلك ؟ والمراد هنا وأى شىء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟

(وقد فصل لكم ما حرم عليكم) أى وقد فصل لكم ما حرمه عليكم وبينه بما سيأتى فى قوله : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » ومعنى أهلّ لغير الله به أى ذكر عليه اسم غيره عند ذبحه كالأصنام والأنبياء والصالحين الذين وضعت التماثيل ذكرى لهم .

(إلا ما اضطررتم إليه) أى إلا ما دعتكم الضرورة إلى أكله بأن لم يوجد من الطعام عند شدة الجوع إلا المحرم ، فحينئذ يزول التحريم . والقاعدة الشرعية « الضرورات تبيح المحظورات » والقاعدة الأخرى « الضرورة تقدر بقدرها» فيباح للمضطر ما تزول به الضرورة ويتقى به الهلاك لا أكثر منه .

(وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) أى وإن كثيرا من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم الزائغة وشهواتهم الفاسدة من غير علم منهم بصحة ما يقولون ، ولا برهان على ما فيه يجادلون ، اعتداء وخلافا لأمر الله ونهيه وطاعة للشياطين ،

كعمرو بن لَحْى وقومه . الذين اتخذوا البحائر والسوائب ، وأحلوا أكل الميتة ، وما أهل به لغير الله بذكر اسم ذلك الغير من نبى أو ولىّ أو وثن أو صنم .

وأصل عبادة الأوثان أنه كان فى القوم الذين أرسل إليهم نوح رجال صالحون فلما ماتوا وضعوا لهم أنْصَابا ليتذكروهم بها و يقتدوا بهم، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا حكمة وضعها لكنهم حفظوا تكريمها ، والتبرك بها ، تدينا وتوسلا إلى الله ، فكان ذلك عبادة لها وتسلسل فى الأمم بعدهم ، وقد روى البخارى عن ابن عباس : إن المضلين يبنون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التى عبدوا بها غير الله كالتوسل به ودعائه ، وطلب الشفاعة منه ، وذبح القرابين باسمه ، والطواف حول تمثاله أو قبره والتمسح بأركانهما ، وكل ذلك شرك فى العبادة شبهته تعظيم المقربين من الله تعالى للتقرب بهم إليه .

وقد انتشرت هذه الشبهات الوثنية فى أرباب الكتب الإلهية ، وأولوا لأجلها النصوص القطعية وأنكروا تسمية ذلك عبادة ، أو أن هذه العبادة إذا كانت لغير الله لجعله واسطة ووسيلة إليه لاتعد شركا به ، وما الشرك فى العبادة إلا هذا .

(إن ربك هو أعلم بالمعتدين) أى إن ربك الذى أرشدك وهداك هو أعلم منك ومن سائر خلقه بالمعتدين الذين يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه عليهم . أو يتجاوزون حد الضرورة عند وقوعها وفى هذا من التهديد والتخويف ما لايخفى .

وفى الآية إيماء إلى تحريم القول فى الدين بالتقليد لأن ذلك من اتباع الأهواء بغير علم ، إذ المقلد غير عالم بما قلد فيه .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) الإثم لغة ما قبح ، وشرعا ما حرمه الله ، والله لم يحرم على عباده إلا ما كان ضارا بالأفراد فى أنفسهم أو فى أموالهم أو فى عقولهم أو فى أعراضهم أو فى دينهم ، أو ضارا بالجماعات فى مصالحهم السياسية أو الاجتماعية .

والظاهر منه ما تعلق بأفعال الجوارح ، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب ، كالكبر والحسد وتدبير المكايد الضارة والشرور للناس ، ومنه الاعتداء فى أكل

المحرم الذى يباح للمضطر دون أن يتجاوز فيه حد الضرورة كما بينه الله بقوله : « فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهذه الجملة من جوامع الكلم والأصول العامة فى تحريم الآثام ، ومن ثم قال ابن الأنبارى : المراد بذلك ترك الإثم من جميع جهاته كما تقول ما أخذت من هذا المال لا قليلا ولا كثيرا تريد ما أخذت منه وجه من الوجوه .

(إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) أى إن الذين يكسبون نوعا من الآثام الظاهرة أو الباطنة سيلقون جزاء إثمهم وعاقبة كسبهم للذنوب التى أفسدت فطرتهم ودست نفوسهم بإصرارهم عليها ومعاودتها المرة بعد المرة .

أما الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، فهؤلاء يتوب الله عليهم ويمحو تأثير الإثم فى قلوبهم ، بما يفعلونه من الحسنات كما قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » وبذلك تعود نفوسهم زكية وتلقى ربها سليمة نقية من أدران السوء التى كانت قد وقعت منها لماما .

واتفق المسلمون على أن التوبة تمحو الْحَوْبة : أى إن التوبة الصحيحة بالعزم الصادق والندم على مافات تمحو آثار الذنب الماضى ، فإن الله قد يعفو عن المذنب فيغفر له ما فرط منه من الذنوب كما قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

ثم صرح الله تعالى بما فهم من الأمر السابق ، بقوله : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) لشدة العناية بهذا الأمر الذى هو من أظهر أعمال الشرك فقال :

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) أى ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء فى الآية الأخرى « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » .

[تنبيه] قال مالك كل ذبح لم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام، ترك الذكر

عمدا أو سهوا ، وقال أبو حنيفة إن ترك الذكر عمدا حرم ، وإن ترك نسيانا حل ، وقال الشافعى : متروك التسمية عمدا أو سهوا حلال إذا كان الذابح مسلما .

(وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) أى وإن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن أطعتموهم فيها مجاريتموهم فى هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن التعبد لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إليه زلفى ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية . وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التى لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركا وكذلك من يأكل الميتة ، بل يكون عاصيا إن لم يكن مضطرا .

قال عِكْرِمة : وإن الشياطين يعنى مردة المجوس ، ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ليصل إلى نبى الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام ، فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء فأنزل الله هذه الآية ثم قال : (وإن أطعتموهم) يعنى فى استحلال الميتة (إنكم لمشركون) قال الزجاج وفيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى أو حرم شيئا مما أحل الله تعالى فهو مشرك ، لأنه أثبت مشرعا سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهل به لغير الله . وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استبشارا بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود . ومثل هذا لا يوجب التحريم ، وهذا هو الراجح الذى عليه المعول .

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعت، الأكابر واحدهم أكبر أو كبير: وهو الرئيس، والمجرمون: فاعلو الإجرام، والإجرام: هو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال، والقرية: البلد الجامع للناس (العاصمة فى عرف هذا العصر) وقد تطلق بمعنى الشعب أو الأمة. ويرادفها البلد فى اصطلاح هذا العصر فيقولون ثروة البلد، مصلحة البلد ويريدون الأمة؛ والمكر: صرف المرء غيره عما يريده إلى غيره بضرب من الحيلة فى الفعل، أو الخلابة فى القول .

المعنى الجملى

بعد أن أبان الله سبحانه وتعالى أن أكثر أهل الأرض ضالون متبعون للظن والحدس، وأن كثيرا منهم يضلون غيرهم بأهوائهم بغير علم، وأن الشياطين منهم العاتين عن أمر ربهم يوحون إلى أوليائهم ما يجادلون به المؤمنين ليضلوهم ويحملوهم على اقتراف الآثام، ويحملوهم أيضا على الشرك بالله بالذبح لغيره والتوسل به إليه وهو عبادة له — ضرب هنا مثلا يستبين به الفرق بين المؤمنين المهتدين للاقتداء بهم، والكافرين الضالين للتنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم مع ذكر السبب فى استحسان الكافرين لأعمالهم وهو تزيين الشيطان لهم ما يعملون، ومن ثم انغمسوا فى ظلمات لا خلاص لهم منها، وأصبحوا فى حيرة وتردد على الدوام .

الإيضاح

(أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟) أى أأنتم أيها المؤمنون كأولئك الشياطين أو كأوليائهم الذين يجادلونكم بما أوحوه إليهم من زخرف القول الذى غروهم به ، ومن كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس وهو نور القرآن المؤيد بالحجة والبرهان ، يمشى به فى الناس على بصيرة من أمر دينه وآدابه ومعاملاته للناس كمن مثله المبين لحاله مثل السائر فى ظلمات بعضها فوق بعض (ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر) وهو ليس بخارج منها لأنه يبقى متحيرا لا يهتدى إلى وجه صلاحه فيستولى عليه الخوف والفزع والعجز والحيرة الدائمة . وكذلك الخابط فى ظلمات الجهل والتقليد الأعمى وفساد الفطرة ليس بخارج منها لأنها قد أحاطت به وألفتها نفسه فلم يعد يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور ، بل ربما شعر بالألم من هذا النور المعنوى كما يألم الخفاش بالنظر إلى النور الحسى .

والخلاصة : إنه ينبغى المسلم أن يكون حيا عالما على بصيرة فى دينه وأعماله وحسن سيرته ، وأن يكون القدوة والأسوة للناس فى الفضائل والخيرات والحجة على فضل دينه على سائر الأديان .

(كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى مثل هذا التزيين الذى تضمنه المثل السابق ، وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله حياة عالية وتزيين ظلمات الضلال والكفر لموتى القلوب ، قد زين للكافرين ما كانوا يعملون من الآثام كعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وذبح القرابين لغير الله وتحريم ما لم يحرمه الله وتحليل ما حرمه بمثل تلك الشبهات التى تقدم ذكرها .

(وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) أى وكما أن أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، فزين لهم على

حسب سنننا فى البشر سوء أعمالهم فى عدوان الرسل ومقاومة الإصلاح اتباعا للهوى، واستكبارا فى الأرض .

ومجمل القول : إن سنة الله فى الاجتماع البشرى قد قضت أن يكون فى كل عاصمة لشعب أو أمة بعث فيها رسول أو لم يبعث — زعماء مجرمون يمكرون بالرسل وبسائر المصلحين من بعدهم ، وهكذا كان الحال فى أكثر أكابر الأمم والشعوب ولا سيما فى العصور التى تكثر فيها المطامع ويعظم حب الرياسة والكبرياء فتراهم يمكرون بالأفراد والجماعات ليحفظوا رياستهم ويعززوا كبرياءهم كما يمكرون بغيرهم من الساسة والرؤساء إرضاء لمطامع أمتهم وتعزيز نفوذ حكومتهم بين الشعوب والدول .

والمراد بالأكابر المجرمين من يقاومون دعوة الإصلاح ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم ، وكان أكثر أكابر مكة كذلك ، وتخصيص الأكابر بذلك لأنهم أقدر على المكر واستتباع الناس .

(وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) أى وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل فى عصرهم ودعاة الإصلاح من ورثتهم من بعدهم — إلا بأنفسهم . وهكذا شأن من يعادون الحق والعدل ليبقى لهم ماهم عليه من فسق وفساد ، لأن سنة الله قد جرت بأن عاقبة المكر السيئ تحيق بأهله فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فبما ثبت فى القرآن من نصر المرسلين وهلاك الكافرين المعاندين ، ومن علو الحق على الباطل ، ومن هلاك القرى الظالمة ، وبما أيده الاختبار ودلت عليه نظم العمران من أن تنازع البقاء يقضى ببقاء الأمثل والأصلح « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وقد أشارت الآيات إلى أن هذا كان سنة الله فى الأولين فقال : « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل حرصا على رياستهم وفسقهم وفسادهم ، لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم

تحيق بهم لجهلهم بسنن الله فى خلقه وهم خليقون بهذا الجهل . وأما فى الآخرة فالأمر واضح والنصوص متظاهرة على ذلك .

وهذه الجملة متضمنة لوعيد الماكرين من مجرمى أهل مكة ، وفيها وعد وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) .

شرح المفردات

الصغار والصَّغَر (بالتحريك) : الذل والهوان جزاء الكفر والطغيان ، وهو قلة فى الأمور المعنوية . والصِّغَر (بزنة عنب) قلة فى الأمور الحسية والصاغر : الراضى بالمنزلة الدنية . وشرح الصدر : توسعته ، ويراد به جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها وخلوها مما يكدرها . والضيق (بالتشديد والتخفيف) كهين وهين : ضد الواسع . والحرج : شديد الضيق من الحرجة وهى الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض بحيث يصعب الدخول فيه . روى أن عمر سأل أعرابيا من بنى مدلج عن الحرجة فقال :

هى الشجرة تكون بين الأشجار لاتصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لايصل إليه شىء من الخير . والرجس : كل مايستقذر حسا أو عقلا أوشرعا ، وهو مالاخير فيه ، أو هو اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . صراط ربك: أى طريقه الذى ارتضاه وسنته التى اقتضتها حكمته ، والمستقيم : مالا اعوجاج فيه ولا زيغ ، دار السلام : هى الجنة ، أو هى دار السلامة من المنغصات والكروب ، وليهم : أى متولى أمورهم وكافيهم كل ما يهمهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن سنته فى البشر قضت بأن يكون فى كل شعب أو أمة زعماء مجرمون يمكرون بالرسل وبدعاة الإصلاح ، ويقاومون دعوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ــ ذكر هنا أن هذه السنة تنطبق أشد الانطباق على مجرمى أهل مكة الذين تعنتوا أشد التعنت فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات ، ثم ذكر بعد هذا سنة الله فى المستعدين للإيمان وغير المستعدين مع ظهور الحق فى نفسه .

وقد نزلت هذه الآية فى الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أحق بها من محمد فإنى أكثر منه مالا وولدا .

الإيضاح

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى إذا جاءت أولئك المشركين آية بينة من القرآن تتضمن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من التوحيد والهدى قالوا لانؤمن إلا إذا أتى على يديه من الآيات الكونية التى يؤيده الله بها ، مثل ما أوتى رسل الله كفلق البحر لموسى وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى .

وقال ابن كثير أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتى إلى الرسل . وهذا بمعنى قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » الآية .

وخلاصة ذلك — إنهم لايؤمنون بالرسالة إلا إذا صاروا رسلا يوحى إليهم . وقد رد الله عليهم جهالتهم و بين لهم خطأهم بقوله :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه وهذا كقوله : حكاية عنهم « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » الآية . يريدون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم مبجل فى أعينهم من القريتين مكة والطائف ، ذاك أنهم ـ جازاهم الله بما يستحقون ـ كانوا يزدرون الرسول صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا كما قال تعالى : « وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ » وهم مع ذلك كانوا يعترفون بشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه وكانوا يسمونه بالأمين ، فكان ينبغى أن يكون فى ذلك مقنع لهم بأنه أولى من أولئك الأكابر الحاسدين له بالرسالة ، و بكل ما فيه الكرامة ، ولكنه الحسد والبغى والتقليد . كل أولئك كان الباعث لهم على تلك الأقوال وعمل هاتيك الأفعال فى عداوته ومعاندته .

والخلاصة — إن الرسالة فضل من الله يمنحه من يشاء من خلقه ، لايناله أحد بكسب ولا يتصل إليه بسبب ولا نسب ولا يعطيه إلا من كان أهلا له لسلامة الفطرة ، وطهارة القلب ، وحب الخير والحق .

(سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) أى سيصيب المجرمين الماكرين الذين قد قضت سنة الله أن يكونوا زعماء فى كل

شعب دب فيه الفساد ، عذاب شديد مكان ما تمنوه وعلقوا به آمالهم من عز النبوة وشرف الرسالة .

ومعنى كونه – من عند الله – أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره ؛ فإن ما هو ثابت عند الله فى حكمه التكوينى الذى دبر به نظام الخلق ، وحكمه الشرعى التكليفى الذى أقام به العدل والحق – يقال إنه من عند الله و يكون هذا جزاء لهم على استكبارهم عن الحق فى الدار الدنيا كما قال تعالى : « كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

وعذاب الأمم فى الدنيا بذنوبها مطرد وعذاب الأفراد لايطرد و إن كانوا من المجرمين الماكرين . وقد عذب الله فى الدنيا أكابر مجرمى أهل مكة الذين تصدوا لإيذاء النبى صلى الله عليه وسلم والكيد له كالخمسة المستهزئين الذين قد سبق الكلام فيهم فقتل منهم من قتل فى بدر ، ولحق الصغار والهوان بالباقين .

وقد سيقت هذه الجملة وعيدا لهم وبيانا لسوء عاقبتهم لحرمانهم من الاستعداد للايمان ، وقفى ذلك بالمقابلة بينهم و بين المستعدين له فقال :

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أى من كان أهلا بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذى هو دين الفطرة ، والهادى إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك فى نفسه انشراحا واتساعا بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعا من النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالته ، فتتوجه إليه إرادته و يذعن له قلبه ، بما يرى من ساطع النور الذى يستضىء به لبه ، و باهر البرهان الذى يتملك نفسه .

«وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، قالوا كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له و ينفسح ، قالوا فهل لذلك من أمارة

يعرف بها ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود . والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » .

(ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعّد فى السماء) أى إن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد فى صدره ضيقا أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس ، وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعى إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثله مثل من صعد فى الطبقات العليا فى جو السماء ، إذ يشعر بضيق شديد فى التنفس ، وكلما صعد فى الجو أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع سبيلا إلى البقاء فإن هو قد بقى فيها مات اختناقا .

وخلاصة ذلك — إن الله ضرب مثلا لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه ، بضيق التنفس الذى يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى تقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرنا ، وتقدم فن الطيران الآن علم الطيارين بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك ، ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات التى هى أسفل منها ، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحيانا إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات .

وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيرا جليا لأنهم لم يهتدوا لسرها ، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها و بيان المراد منها على حسب ما أثبته العلم، ومن هذا صح قولهم: الدين والعلم صنوان لا عدوان، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

(كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون) أى كما جعل الصدر ضيقا حرجا بالإسلام على هذا النحو فى سنة الله وتقديره بما تقدم ذكره من الأسباب ، يجعل الرجس على الذين يعرضون عن الإيمان ، فيظهر أثر ذلك فى تصرفاتهم وأعمالهم فيكون غالبها قبيحا سيئا فى ذاته أو فيما بعث عليه من قصد ونية ، لأن الإيمان الذى اجتنبوه هو الذى يصد عنه و يطهر الأنفس منه .

(وهذا صراط ربك مستقيما) أى وهذا الإسلام الذى يشرح الله له صدر من يريد هدايته ، هو صراط ربك الذى بعثك به ، و بين لك أصوله وعقائده بالبراهين الواضحة والبينات الظاهرة ، حال كونه مستقيما فى نظر العقول الراجحة والفطر السليمة، بعيدا من الإفراط والتفريط ، فلا اعوجاج فيه ولا التواء ، بل هو السبيل السوى ، وما عداه من الملل والنحل فهو معوجّ ملتو بما فيه من زيغ وفساد وخروج عن الجادّة التى يؤيدها العقل وتستند إلى النقل كما قال علىّ كرم الله وجهه فى نعت القرآن : هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم .

(قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) أى قد وضحنا آياته وفسرناها لقوم يتذكرون ما بلغوه منها كلما عرضت الحاجة إليه فيزدادون بذلك يقينا ورسوخا فى الإيمان ، كما يزدادون موعظة تبعثهم على الإذعان والعمل الصالح .

(لهم دار السلام عند ربهم) أى لهؤلاء السالكين صراط ربهم المستقيم دار السلام عنده بسلوكهم صراطه الموصل إليه بما أسلفوا من عمل ، إذ هم قد اقتفوا آثار الأنبياء وطرائقهم وسلموا من الاعوجاج فوصلوا إلى دار السلام .

(وهو وليهم بما كانوا يعملون) أى إنه تعالى متولى أمورهم وكافيهم كل مايعنيهم جزاء على صالح أعمالهم التى تزكى نفوسهم وتصلح حالهم فى الدنيا والآخرة ، فيتولى رعايتهم وتوفيقهم فى الدنيا ، وينيلهم الثواب ويدخلهم جنات النعيم بمنه وكرمه .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) .

شرح المفردات

المعشر والنفر والقوم والرهط : الجمع من الرجال فحسب ، ولا واحد لها من لفظها ، وقال الليث : المعشر كل جماعة أمرهم واحد نحو معشر المسلمين ومعشر الكافرين ، ويطلق على الإنس والجن بدليل الآية ، واستكثر : أخذ الكثير ، يقال استكثر من الطعام: أكل كثيرا ، وأولياؤهم: هم الذين تولوهم أى أطاعوهم فى وسوستهم وما ألقوه إليهم من الخرافات والأوهام ، والاستمتاع بالشيء : جعله متاعا ، والمتاع ما ينتفع به انتفاعا طويلا ممتدا وإن كان قليلا ، وبلغنا أجلنا : أى وصلنا يوم البعث والجزاء ، والمثوى : مكان الثواء ، أى الإقامة والسكنى ، والخلود : المكث الطويل غير المؤقت بوقت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده من العذاب للمجرمين ، وما أعده من الثواب والنعيم فى دار السلام للمؤمنين ، إثر بيان أحوالهم وأعمالهم التى استحق بها كل منهما جزاءه .

فقى على ذلك بذكر ما يكون قبل هـذا الجزاء من الحشر وبعض ما يكون فى يومه من الحساب ، وإقامة الحجة على الكفار ، وسنة الله فى إهلاك الأمم .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) أى ويوم يحشرهم جميعا يقول لمعشر الجن منهم : يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس أى استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم كما قال تعالى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ » .

والمراد أنهم استتبعوهم بسبب إضلالهم إياهم فحشروا معهم ، لأن المكلفين يحشرون يوم القيامة مع من اتبعوهم فى الحق والخير ، أو فى الباطل والشر .

(وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى وقال الذين تولوا الجن من الإنس فى جواب الرب تعالى : يا ربنا تمتع كل منا بالآخر بما كان للجن من اللذة فى إغوائنا بالأباطيل وأهواء الأنفس وشهواتها ، وبما كان لنا فى طاعتهم ووسوستهم من اللذة فى اتباع الهوى والانغماس فى اللذات ، قال الحسن البصرى : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس اهـ .

وفى الآية إيماء إلى أن كل إنسى يوسوس له شيطان من الجن بما يزين له من الباطل وبما يغريه من الفسق والفجور .

فهذا الخلق الخفى الذى هو من جنس الأرواح الشريرة يلابسها بقدر استعدادها للباطل والشر ويقوى فيها داعيتهما كما تلابس جِنَّة الحيوان الخفية (الميكروبات) الأجساد الحيوانية فتفسد مزاجها وتصيبها بالأمراض والأدواء ، فقد أثبت الطب الحديث دخول النسم (النسم لغة : كل مافيه روح) الحية (الميكروبات) فى الأجسام، وعرفت الطرق والمداخل الخفية لدخولها بما استحدث من المناظير (الميكروسكوبات)

التى تكبر الصغير حتى يرى أكبر من حقيقته بألوف الأضعاف ، فأمكن أن نعرف أن فى الأرض أنواعا من النسم الخفية تدخل الأجسام من خراطيم البراغيث أو البعوض أو القمل ، أو مع الماء والطعام ، وتنمو فيها بسرعة مدهشة فتولد ألوف الألوف ، ومتى تكاثرت ولدت الأمراض والأوبئة القاتلة ، ولو كان قد قيل مثل هذا لأكبر أطباء المصريين القدامى أو للهنود أو اليونان أو العرب لعدوه نوعا من الشعوذة والسحر أو ضربا من التخييل والجنون .

وإذا كان هذا الاتصال الخفى قد ثبت فى الأجساد بعد آلاف السنين فلا عجب أن يثبت مثل ذلك فى الأرواح ، وأمرها أخفى من الأجساد ، والكتاب والسنة مليئان بهذا ، فقد جاء فى الحديث ما يدل على وجود هذه الجراثيم (الميكروبات) التى لم يثبتها الطب إلا حديثا ، وكفى بهذا معجزة لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن الله أوحى إليه بنظريات لم يثبتها العلم إلا بعد ذلك بأربعة عشر قرنا ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « تنكبوا الغبار فإن منه تكون النسمة » وقال عمرو بن العاص : اتقوا غبار مصر فإنه يتحول فى الصدر إلى نسمة ، ولو أن هذ الأثر قيل لغير المتمدينين وفسر لهم هذا التفسير قبل اختراع المناظير لكان فتنة للناس وزادهم نفورا مما جاء به الرسول ، ولكن فى كل يوم يثبت العلم نظريات جديدة تكون نعم العون على صدق ما جاء به الرسول ، وتلقى نورا على الناس ينظرون به تلك الدرر الغوالى المبثوثة فى القرآن والحديث وآثار الصدر الأول من المسلمين .

(وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) أى ووصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذى حددته لنا وهو يوم البعث والجزاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا فاحكم فينا بما تشاء وأنت الحكم العدل .

ومقصدهم من هذا الإخبار إظهار الحسرة والندامة على ما كان منهم من التفريط فى الدنيا وتفويض الأمر إلى ربهم العليم بحالهم ، ولم يذكر هنا قول المتبوعين من الشياطين وحكاه فى آى أخرى فقال فى الفريقين « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ

بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بعضًا » وكما ذكر فى سورة البقرة كيف يتبرأ بعضهم من بعض ، وحكى فى سورة إبراهيم أقوال كل من الضعفاء التابعين من الناس وأقوال المتكبرين المتبوعين وقول الشيطان للفريقين وتنصله من استحقاق الملام وكفره بما أشركوا .

(قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) أى قال الله تعالى ردا عليهم : النار منزلكم وموضع إقامتكم إقامة خلود إلا ما شاء الله مما يخالف ذلك ، فكل شىء بمشيئته واختياره ، فإن شاء أن يرفعه كله أو بعضه عنكم أو عن بعضكم فعل ، فله السلطان الكامل والنفوذ الأعلى ، ولكن هل يشاء ذلك ؟ هذا مما يتعلق بعلمه وحده ولا يعلمه غيره إلا بإعلامه .

(إن ربك حكيم عليم) أى إنه تعالى حكيم فيما تتعلق به مشيئته من الجزاء الذى نص عليه فى كتابه ، عليم بما يستحقه كل من الفريقين ، والبشر لايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء .

روى ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن هذه الآية آية لاينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عز اسمه عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضا — أردف ذلك ببيان أن ذلك يحدث بتقديره تعالى وقضائه .

الإيضاح

(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) تولية الله الناس بعضهم بعضا جعل بعضهم أنصارا وأولياء لبعض ، إما بمقتضى أمره فى شرعه ومقتضى سننه وتقديره كما فى ولاية المؤمنين بعضهم بعضا فى الحق والخير والمعروف ، فقد أمرهم بذلك فى شرعه ونهاهم عن ضده ، وهو أيضا مقتضى الإيمان الصادق وأثره الذى لاينفك عنه على حسب تقدير الله الذى مضت به سنته فى خلقه ، و إما بمقتضى سنته وتقديره فحسب وهو ولاية الكفار المجرمين والمنافقين بعضهم بعضا ، إذ هذا أثر مترتب على الاتفاق فى الاعتقاد والأخلاق واشتراك المنفعة على حسب تقديره تعالى وسنته فى نظم الحياة البشرية ، وهو لم يأمرهم بشىء مما يتناصرون به فى الباطل والشر والمنكر ، بل نهاهم عن ذلك ، ولكن شأن الأفراد والجماعات أن يميل كل منهم إلى من كان على شاكلته ويتولاه بالتعاون والتناصر فيما هم فيه مشتركون ويناوئون من يخالفهم فى ذلك .

أى ومثل ذلك الذى ذكر من استمتاع أولياء الإنس والجن بعضهم ببعض فى الدنيا لما بينهم من التناسب والمشاكلة نولى بعض الظالمين بعضا لأنفسهم وللناس بسبب ما كانوا يكسبون باختيارهم من أعمال الظلم المشتركة بينهم .

روى عن قتادة أنه قال فى تفسير الآية : إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولى المؤمن من أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر من أين كان وحيثما كان وليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولعمرى لو عملت بطاعة الله ولم تعرف أهل

طاعة الله ما ضرك ذلك ، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله ما نفعك ذلك شيئاً اه .

وروى أبو الشيخ عن منصور بن أبى الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) ما سمعتهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم اه . ذاك أن الملوك يتصرفون فى الأمم الجاهلة الضالة تصرف الرعاة فى الأنعام السائمة ، فهم يتخذون الوزراء والحاشية من أمثالهم فيقلدهم جمهور الأمة فى سيىء أعمالهم ، فيغلب الفساد على الصلاح ، ويفسقون عن أمر الله فيهلكون أو يسلط عليهم الأمم القوية التى تستبيح حماهم وتثل عروشهم ويصبحون مستعبدين أذلاء بعد أن كانوا سادة أعزاء كما قال سبحانه : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » .

أما الأمم العالمة بسنن الاجتماع التى أمرها شورى بين زعمائها وأهل الرأى فيها ، فلا يستطيع الملوك أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، بل يكونون تحت مراقبة أولى الأمر فيها .

وقد وضع الإسلام هذا الدستور فجعل أمر الأمة بين أهل الحل والعقد ، وأمَرَ الرسول بالمشاورة ، فسار على هذا النهج ، وجعلت الولاية العامة — الخلافة — بالانتخاب .

واقتفى الخلفاء الراشدون خطواته ، وجروا على سنته ، فقال الخليفة الأول أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له : أما بعد فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمت فأعينونى ، وإذا زغت فقومونى .

وقال الخليفة الثانى على المنبر : من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه . . وقال الخليفة الثالث على المنبر أيام الفتنة : أمرى لأمركم تبع .

وقوله (الظالمين) يشمل الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس من الحكام وغيرهم ،

إذ كل من هؤلاء وأولئك يتولى من يشا كله فى أخلاقه وأعماله وينصره على من يخالفه .

ثم أجاب سبحانه عن سؤال يخطر بالبال وهو : ما حال الظالمين إذا قدموا على الله يوم القيامة ؟ فأجاب بأنهم يسألون فقال :

(يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ؟) أى إنهم ينادون ويسألون عن دعوة الرسل لهم فتقوم الحجة عليهم فيما يترتب من الجزاء على مخالفتها .

وقوله : (رسل منكم) ظاهر فى أن كلا من الفريقين — الإنس والجن — قد أرسل منهم رسل إلى أقوامهم ، لكن جمهرة العلماء يقولون : إن الرسل كلهم من الإنس كما يدل عليه ظاهر الآيات الأخرى ، وقالوا إن المراد بقوله : منكم أى من جملتكم لا من كل منكم ، وهو يصدق على رسل الإنس الذين ثبتت رسالتهم إلى الإنس والجن .

والجن عالم غيبى لانعرف عنه إلا ما ورد به النص ، وقد دل الكتاب الكريم وصحيح الأحاديث على أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم كقوله تعالى حكاية عن الذين استمعوا القرآن منهم أنهم قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » فهذا ظاهر فى أنه كان مرسلا إليهم فنؤمن بذلك ونفوض الأمر فيما عداه إلى الله .

ثم بين سبحانه وظيفة الرسل الذين أرسلهم الله إلى الفريقين بقوله :

(يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى إنهم يتلون عليه الآيات المبينة لأصول الإيمان وأحاسن الآداب والفضائل ، والمفصلة لأحكام التشريع التى من ثمراتها صلاح الأعمال والنجاة من الأهوال ، وينذرونكم لقاء يوم الحشر بالإعلام بما يكون فيه من الحساب والجزاء لمن كفر بالله وجحد بآياته .

ثم أجابوا عن سؤال فهم من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا حين ذلك التوبيخ الشديد ؟ فقيل .

(قالوا شهدنا على أنفسنا) أى شهدنا بإتيان الرسل وإنذارهم وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب . وفى هذا الجواب اعتراف صريح بكفرهم ، وإقرار بأن الرسل قد أتوهم وبلغوهم دعوتهم إما مشافهة أو نقلا عمن سمعها منهم .

وهذا موطن من مواطن يوم القيامة ، وفى موطن آخر لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، وفى موطن ثالث يكذبون على أنفسهم بما ينكرون من كفرهم وأنهم قدموا شيئا من السيئات والخطايا .

ونحو الآية قوله : « قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » .

(وغرتهم الحياة الدنيا) أى وغرتهم زينة الحياة الدنيا ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحب السلطان على الناس وعظيم الجاه ، فكفروا بالرسل عنادا وكبرا ، وقلدهم فى ذلك أتباعهم ، واغتر كل منهم بما يغتر به من التعاون مع الآخر .

وأما غرور غيرهم ممن جاء بعدهم بالدنيا، فلما غلب عليهم من الإسراف فى الشهوات المحرمة والجاه الباطل حتى لقد أصبحت الحظوة بين الناس لذوى المال والنسب مهما اجترحوا من الموبقات وأبسلوا من المكارم والخيرات .

(وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى وبعد أن قامت عليهم الحجة شهدوا على أنفسهم بأنهم كانوا فى الدنيا كافرين بتلك الآيات والنذر التى جاء بها الرسل حين رأوا أنه لا يجديهم الكذب ولا تنفعهم المكابرة .

والكفر بالرسل ضربان : كفر بتكذيبهم بالقول ، وكفر بعدم الإذعان النفسى، الذى يتبعه العمل على حسب سنن الله فى ترتب الأعمال على الطباع والأخلاق .

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) أى ذلك الذى ذكر من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله لإصلاح حال الأفراد والجماعات فى شئونهم الدنيوية والأخروية ، وينذرونهم يوم الحشر والجزاء ، بسبب أن الله لم يكن من سنته فى تربية خلقه أن يهلك الأمم بعذاب الاستئصال الذى أوعد به مكذبى الرسل ،

بظلم منهم وهم غافلون عما يجب أن يقفوا به ذلك الهلاك ، بل يسبق هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق بما يقصه عليها من آيات الوحى فى عصره ، أو بما ينقله إليها من يبلغونها دعوته من بعده ، إذ من حكمة الله فى الأمم جعل ما يحل بها من عقاب جزاء على عمل استحقته به ، فيكون عقابها تربية لها وزجرا لسواها .

والخلاصة — إن الله لا يظلم أحدا من خلقه ، بل هم الذين يظلمون أنفسهم ، وإن الإهانة والتعذيب تربية لهم وتأديب وزجر لغيرهم ، وإن هذا العقاب للأمم منه ماهو فى الدنيا ومنه ماهو فى الآخرة ، ومن الأول عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاءوهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية ، وبعد أن أنذروهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا بها كما حصل لعاد وثمود ، وقد انقطع ذلك بانقطاع الرسل .

وهلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق والفجور الذى يفسد الأخلاق ، ويقطع روابط المجتمع ويجعل بأس الأمة بينها شديدا .

وهذه الآية وما شاكلها من قواعد الاجتماع التى سبق أن شرح جانبا منها بعض علماء الاجتماع من المسلمين كابن خلدون ، لكن لم يستفد من ذلك من جاء بعده من علمائهم ، واستفاد منها غيرهم ، كما لم يستفيدوا من هدى القرآن ومثله العليا فى إقامة ملكهم وحضارتهم على حسب ما أرشدهم إليه من سنن الاجتماع فيمن قبلهم ، وإنهم لا يزالون غافلين عن هذا الرشاد مع حاجة العصر إلى بذل أقصى ما يكون من الجهد فى هذا المضمار ، لأن الأمم قد افتنت فى الوصول إلى أغراضها بكل الوسائل التى يمكن أن يفكر فيها البشر ، كما هى سنة تنازع البقاء .

ولا نرى من المسلمين إلا معاذير لو تركوها لكان أحرى بهم وبما ينسبونه إلى دينهم كذبا وافتراء ، إذ يعتذرون تارة عن ضعف أممهم وتقصيرها بأن كل شىء بقضاء وقدر ، ولو سلم لهم هذا لكان الناس مجبورين فى أعمالهم لا مختارين ، وقواعد الدين تأبى هذا ، والتكاليف الشرعية مؤسسة على غير ما يقولون .

وأين كان هذا أيام أن كان المسلمون فى أوج عزهم يكافحون و ينافحون و يتغلبون على من سواهم من الأمم و يفتحون الممالك والأمصار ، وتخفق عليها بنودهم وأعلامهم.

وتارة يسلون أنفسهم بأن هذا من علامات الساعة ، وأنّى لهم بها ؟ وهل هم أوتوا من العلم ما يرشدهم إلى ما يدّعون ، بل لقد بلغ الأمر بهم أن وسوس لهم الشيطان وهم يناجون أنفسهم أو إذا خلوا إلى شياطينهم أن قالوا : إن تعاليم الإسلام أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم: « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » أفليست تعاليمهم هذه هى التى شيدت صروح المجد فى سالف العصور وأقامت ملكا ضم أطراف المغرب والمشرق ؟.

أليس أسلافهم بهذه التعاليم ثلوا عروش الأكاسرة والقياصرة ، ودوخوا الممالك ، وأسسوا حضارات ، ووضعوا قوانين لاتزال أرقى الأمم مدنية تمتح من معينها ، وتطفئ ظمأها من نميرها العذب ؟

وقد التمس بعضهم هداية غير هداية القرآن ليؤسس عليها سعادة دنياه ، فكان كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، فلم يتم له ما أراد وخسر دنياه وأخراه ، وذلك هو الضلال البعيد .

(ولكل درجات مما عملوا) أى ولكل عامل فى طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها و يثيبه بها ، إن خيراً فخير و إن شراً فشر .

(وما ربك بغافل عما يعملون) أى فكل عملهم بعلم من ربك وهو محصيه عليهم ، ومجازيهم بالسيئة سيئة مثلها و يضاعف الحسنات من فضله عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

وفى الآية إيماء إلى أن مناط السعادة والشقاء هو عمل الإنسان ومشيئته ، فإن شاء عمل عمل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فكان من الذين سمعوا القول واتبعوا أحسنه ، فجزاه الله أحسن الجزاء ، و إن شاء تنكب عن جادة الدين ورمى

أحكامه وراءه ظهريا وسار فى غلواء الضلال ، فكان من الأشقياء الذين كبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

شرح المفردات

يذهبكم أى يهلككم ، يستخلف أى ينشىء الذرية والنسل ، بمعجزين أى جاعلى من طلبكم عاجزا غير قادر على إدراككم ، والمكانة: الحال التى هم عليها ، والدار : هى الدنيا ، والمراد بالعاقبة: عاقبة الخير إذ لا اعتداد بعاقبة الشر ، لأن الله جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، وقنطرة المجاز إليها ، وأراد من عباده أعمال الخير لينالوا حسن العاقبة .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات السالفة فى تقرير حجة الله على المكلفين الذين بلغتهم الدعوة فجحدوا بها ، وأنهم يشهدون على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين وأن سنة الله فى إهلاك الأمم فى الدنيا بجنايتها على أنفسها لا بظلم منه تعالى .

وهنا ذكر وعيد الآخرة وأنه مرتب على أعمال المكلفين لا بظلم منه سبحانه ، ولا لحاجة له تعالى إليه ، لأنه غنى عن العالمين ، بل لأنه من مقتضى الحق والعدل المقرونين بالرحمة والفضل .

الإيضاح

(وربك الغنى ذو الرحمة) أى وربك هو الغنى الكامل الغنى ، وهو ذو الرحمة الشاملة التى وسعت كل شىء ، إذ كل ما عداه فهو محتاج إليه فى وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التى جعلها سبحانه قِوام وجوده .

ويقال فى الخلق : هذا غنى إذا كان واجدا لأهم هذه الأسباب التى هى من فيض مولاه وهو مع ذلك محتاج إلى غيره ، انظر إلى الغنى ذى المال الكثير تره محتاجا إلى كثير من الناس من الزوج والخادم والعامل والطبيب والحاكم ، ومحتاجا إلى خالقه وخالق كل شىء كما قال تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

(إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى إن يشأ إذهابكم أيها الكافرون المعاندون واستخلاف غيركم بعدكم يذهبكم بعذاب يهلككم به كما أهلك أمثالكم ممن عاندوا الرسل كعاد وثمود ، ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الأقوام ، فإنه غنى عنكم وقادر على إهلاككم وإنشاء قوم آخرين من ذريتكم أو ذرية غيركم يكونون أحق برحمته منكم ، كما قدر على إنشائكم من ذرية قوم آخرين .

وقد صدق الله وعده فأهلك أولئك الذين عادَوا خاتم رسله كبرا وعنادا وجحدوا بما جاء به وهم يعلمون صدقه ، واستخلف فى الأرض غيرهم ممن كان كفرهم عن جهل أو تقليد لمن قبلهم ولم يلبث أن زال بالتأمل فى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، فكانوا أكمل الناس إيمانا وإسلاما وإحسانا ، وهم المهاجرون والأنصار وذرياتهم ، وكانوا أعظم مظهر لرحمة الله للبشر حتى فى حروبهم وفتوحهم ، وشهد لهم بذلك أعداؤهم حتى قال مؤرخو الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب .

وبعد أن أنذرهم عذاب الدنيا وهلاكهم فيها أنذرهم عذاب الآخرة فقال :

(إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) أى إن ما توعدونه من جزاء الآخرة بعد البعث لآت لا مرد له ، وما أنتم بمعجزين الله بهرب ولا منع مما يريد ، فهو القادر على إعادتكم كما قدر على بدء خلقكم ، وهذا دليل قد ذكره الله فى كتابه مرات كثيرة .

وقد أنار العلم فى هذا العصر أمر البعث وقربه إلى العقول ، فأثبت أن هلاك الأشياء وفناءها ماهو إلا تحلل موادها وتفرقها ، وأنه يمكن تركيب المواد المتفرقة وإرجاعها إلى تركيبها الأول فى غير الأحياء .

بل بلغ الأمر ببعض العلماء من الألمان أن حاولوا إيجاد البشر بطريقة صناعية علمية بتنمية البذرة التى يولد منها الإنسان إلى أن صارت علقة فمضغة ، وزعم أنه يمكن بوسائل أخرى تغذية المضغة فى حرارة كحرارة الرحم إلى أن تتولد فيها الأعضاء حتى تصير إنسانا تاما ، وقال إنه يمكن إيجاد معامل للتفريخ البشرى كمعامل تفريخ الدجاج ، ولكن الكثير من العلماء قالوا إن هذه نظريات لا يمكن إخراجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود بالفعل .

وإذا كان علماء المادة يحاولون الوصول إلى ذلك ولا يعدونه مستحيلا ، فهل يعجز عنه خالق البشر وخالق كل شىء : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ »

ثم تمم الوعيد والتهديد بأمره لرسوله أن ينذرهم بقوله :

(قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى يا قوم اعملوا على مكانتكم وطريقتكم التى أنتم عليها ، إنى عامل على مكانتى وطريقتى التى ربانى ربى عليها وهدانى إليها وأقامنى عليها ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدار بتأثير أعماله .

وفى الآية إيماء إلى أن أحوال الأمم مرتبة على حسب أعمالها ، وأن أعمالها منبعثة من عقائدها وصفاتها النفسية ، وأن عاقبة كل عمل نتيجة حتمية له إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال صاحب الكشاف : اعملوا على مكانتكم - تحتمل وجهين - اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم و إمكانكم ، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها ، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حال : على مكانك يافلان أى اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ، إنى عامل على مكانتى التى أنا عليها .

والمعنى — اثبتوا على كفركم وعداوتكم فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ، فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة .

ثم قال — وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك فيه إنصاف فى المقال وأدب حسن مع تضمن شدة الوعد والوثوق بأن المنذِر محق والمنذَر مبطل اه .

يقصد بذلك رحمه الله — أن فى هـذا الإنذار إحالة على المستقبل ليتم وعده لرسوله بالنصر والتأييد ، وصدق وعيده لأعدائه بقهرهم فى الدنيا بحيث يرونه بأعينهم ، وإذا صدق فى الدنيا صدق فى الآخرة ، وأن كلا منهما كان بإنباء الغيب ، وأن السبب الذى لأجله كانت عاقبة الرسول ومن إتبعه الحسنى فى الدنيا والآخرة واحد ، وكذلك عاقبة من ناوأه وكفر به ، وقد أشار إليه بقوله :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إن الظالمين لأنفسهم بالكفر بنعم الله واتخاذ الشركاء له فى ألوهيته والتوجه إليهم فيما يتقرب به إليه تعالى أو فيما لايطلب إلا منه وهو ما خفيت على المرء أسبابه ، إذ مثل هذا لا يدعى فيه إلا الله وحده ، وما عرف سببه يجب أن يطلب من طريق السبب ، مع العلم بأن خالق الأسباب جميعها هو الله تعالى ، وحال الظالمين للناس أشد من حال الظالمين لأنفسهم ، وكلهم لا يفوزون بفلاح لافى الدنيا ولافى الآخرة، وإنما يفوز به أهل الحق والعدل الذين يؤدون حقوق الله وحقوق أنفسهم ، ولا يكمل مثل هذا إلا لرسل الله وجندهم من المؤمنين .

انظر كيف نصر الله رسوله على الظالمين من قومه كأكابر مجرمى مكة المستهزئين به ثم من سائر مشركى العرب ، ثم نصر أصحابه على أعظم أمم الأرض وأقواها جندا كالرومان والفرس ، ثم نصر من بعدهم على من ناوأهم من أهل الشرق والغرب ،

فلما ظلموا أنفسهم وظلموا الناس لم تبق لهم ميزة عن غيرهم تمكنهم من الفلاح والفوز وانحصر الفوز فى الأسباب المادية والأسباب المعنوية كالصبر والثبات والعدل والنظام .

ولا عجب بعد هذا أن يتغلب عليهم غيرهم ، لأن الله إنما وعدهم نصره إذا هم نصروه وأقاموا شرعه وسلكوا سبيل الحق والعدل كما قال : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ » .

وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا هٰذَا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللّٰهِ ، وَمَا كَانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ افْتِرَاءً عَلَى اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

شرح المفردات

ذرأ أى خلق على وجه الاختراع والإبداع ، لشركائنا أى الأوثان التى يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، لشركائهم أى سدنة الآلهة وخدمها ، أو الشياطين الذين يوسوسون لهم ما يزين ذلك فى أنفسهم ، ويردوهم أى يهلكوهم بالإغواء ، وليلبسوا أى يخلطوا ، حجر أى محجور ممنوع ، كما قالوا : ذبح وطحن أى مذبوح ومطحون ، وجزاه بكذا جعله جزاء له على عمله قال تعالى: « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » وصفهم أى جزاء وصفهم .

المعنى الجملى

بعد أن حاج سبحانه المشركين وسائر العرب فى كثير من أصول الدين وكان آخرها البعث والجزاء ـ ذكر هنا بعض عباداتهم فى الحرث والأنعام والتحليل والتحريم بباعث الأهواء النفسية والخرافات الوثنية .

الإيضاح

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) أى وجعلوا لله نصيبا مما خلق من ثمر الزرع وغلته كالتمر والحبوب ونتاج الأنعام ، ونصيبا لمن أشركوا معه من الأوثان والأصنام .

(فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) أى فقالوا فى النصيب الأول هذا لله أى نتقرب به إليه ، وفى النصيب الثانى هذا لشركائنا أى لمعبوداتنا نتقرب به إليها ، وقوله بزعمهم أى بتقولهم الذى لا بينة لهم عليه ولا هدى من الله ، إذ جعله قربة لله يجب أن يكون خالصا له وحده لا يشرك معه غيره فيه ، وأن يكون بإذنه ، لأنه دين والدين لله ومن الله وحده ، فهذا زعم مخترع لا دين مشترع ، فيكون باطلا .

وقد روى أنهم كانوا يجعلون نصيب الله لِقِرى الضيفان ، وإكرام الصبيان ، والتصدق على المساكين ، ونصيب آلهتهم لسدنتها وقرابينها وما ينفق على معابدها .

(فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أى فما عينوه لشركائهم لايصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله لابالتصدق ولا بالضيافة ولاغيرها ، بل يهتمون بحفظه و إنفاقه على السدنة وذبح الذبائح والقرابين عندها .

(وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) أى وما عينوه وجعلوه له فهو يحول أحيانا للتقرب به إليها .

(ساء ما يحكمون) أى قبح ما يحكمون به بإيثارهم المخلوق العاجز عن كل شيء على الخالق القادر على كل شيء ، و بعملهم شيئا لم يشرعه الله .

وللقبح وجوه متعددة منها :

(١) إنه اعتداء على الله بالتشريع وهو لم يأذن لهم به .

(٢) الشرك فى عبادته تعالى ، ولا ينبغى أن يشرك مع الله سواه فيما يتقرب به إليـــه .

(٣) ترجيح ما جعلوه لشركائهم على ما جعلوه لخالقها وخالقهم .

(٤) إن هذا حكم لا مستند له من عقل ولا هداية من شرع .

نقل على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمى للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، و إن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذى جعلوه لله فاختلط بالذى جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، و إن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سمى للوثن تركوه للوثن .

وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى .

ثم ذكر سبحانه من أعمال الشرك أيضا عملا لامستند له من عقل ولاشرع فقال :

(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) أى ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله والآلهة ـ زين لكثير من المشركين شركاؤهم ـ سدنة الآلهة وخدمها ـ أن يقتلوا أولادهم ، وكان مصدر هذا التزيين وجوهاً مختلفة منها :

(١) اتقاء الفقر الحاصل أو المتوقع ، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله : « وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » وأشار إلى الثانى بقوله : « وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » .

(٢) إتقاء العار بوأد البنات أى بدفنهن وهن على قيد الحياة خشية أن يكنّ سببا للعار أو القتال إذا كبرن ، أو خشية أن يقترنّ بأزواج دون آبائهن فى الشرف .

(٣) التدين بنحر الأولاد للآلهة تقربا إليها بنذر أو بغير نذر ، فقد كان الرجل فى الجاهلية ينذر إن ولد له كذا غلاما لينحرنّ أحدهم كما حلف عبد المطلب فى قصص طويل أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « أنا ابن الذبيحين » .

وسمى الله المزينين لهم الشرك من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن شركاء وإن كانوا هم لم يسموهم لا آلهة ولا شركاء ، لأنهم لما أطاعوهم طاعة إذعان وخضوع فى التحليل والتحريم ولا يكون ذلك إلا لله ـ سماهم كذلك كما قال : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » .

وقد حذا كثير من المسلمين حذو هؤلاء فدعوا غير الله من الموتى تضرعا وخضوعا عند قبورهم مع التقرب إليهم بالصدقات وذبائح النسك ، ولكنهم لا يسمون عبادتهم هذه شركا ولا عبادة ، بل يسمونها توسلا (والأسماء لا تغير الحقائق والأعمال) فالدعاء والتضرع أدل على الحقائق من الأسماء والتأويلات .

ثم ذكر سبحانه علة تزيين المنكرات لهم فقال :

(ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) أى إنهم زينوا لهم هذه المنكرات ليهلكوهم

بالإغواء ، و يفسدوا عليهم فطرتهم ، فتنقلب عواطف ود الوالدين من رأفة ورحمة إلى قسوة ووحشية ، فينحر الوالد ولده و يدفن بنته الضعيفة بيده وهى حية .

والدين الذى لبسوه وخلطوه هو ما كانوا يدّعونه من دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام ، وقد اختلط عليهم بما ابتدعوه من تقاليد الشرك حتى لم يعرف الأصل الذى كان يتبع من هذه الإضافات التى ضموها إليه .

(ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) أى ولو شاء الله أن يخلق الناس مطبوعين على عبادته طبعا لا يستطيعون غيرها كالملائكة ، فلا يؤثر فيهم إغواء ولا تجدى فيهم وسوسة ــ لفعل ، ولكن شاء أن يخلقهم مستعدين للتأثر لكل مايرد على أنفسهم من الأفكار والآراء ، وما يشاهدون من المحسوسات ، واختيار ما يترجح عندهم أنه الخير على ما يقابله ، ومن ثم يؤثر فى نفوسهم ما يستفيدونه بالتعليم والاختيار والمعاشرة والمخالطة ، والناس يتفاوتون فى هذا حد التفاوت ، فلا يمكن أن يكونوا على رأى واحد أو دين واحد .

فدعهم أيها الرسول وما ينتحلونه من شرائع وما يفترون من عقائد ، وعليك بما أمرت به من التبليغ ، والله هو الذى يتولى أمرهم وله سنن فى هداية خلقه لا تتغير ولا تتبدل ، ومن سننه أن يغلب الحق الباطل .

ثم ذكر نوعا ثالثا من آرائهم الفاسدة فقال :

(وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) أى إنهم لغوايتهم وشركهم قسموا أنعامهم وزرعهم أقساما ثلاثة :

(١) أنعام وأقوات من حبوب وغيرها تقتطع من أموالهم وتجعل لمعبوداتهم تعبدا وتدينا ، و يمتنعون من التصرف فيها إلا لها ، و يقولون هى حجر أى محتجرة للآلهة لاتعطى لغيرهم .

وقوله لا يطعمها إلا من نشاء أى لا يأكل منها إلا الرجال دون النساء ، وقوله بزعمهم أى بادعائهم الباطل من غير حجة ولا برهان عليه .

(٢) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تركب ولا يحمل عليها ، قال السدى : هى البحيرة والسائبة والحامى وقد تقدم ذكرها فى قوله : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ، وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْـكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ » .

(٣) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى الذبح ، بل يهلون بها لآلهتهم وحدها ، وكانوا إذا حجوا لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهرها .

(افتراء عليه) أى إنهم قسموا هـذا التقسيم وجعلوه من أحكام الدين ونسبوه إلى الله افتراء عليه واختلاقا له والله منه برىء ، فهو لم يشرعه لهم ، وما كان لغير الله أن يحرم أو يحلل على العباد مالم يأذن به الله ، كما جاء فى قوله : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَـكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً ، قُلْ اللهُ أَذِنَ لَـكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ؟ » .

(سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه وينكل بهم شر النكال بسبب هذا الافتراء القبيح .

ثم ذكر ضربا آخر من أحكامهم فى التحريم والتحليل ينبئ عن سخفهم فقال:

(وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء) المراد بالأنعام هنا البحائر أى المشقوقة الآذان ، والسوائب التى تسيب وتترك للآلهة فلا يتعرض لها أحد ، وكانوا يجعلون لبنها للذكور ويحرمونه على الإناث ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه خالصا للذكور لا تأكل منه الإناث ، وإذا كان ميتا اشترك فيه الذكور والإناث ، وإذا ولدت أنثى تركوها للنتاج .

(سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم) يقولون وصف كلامه بالكذب ـ إذا

كذب ، وعينه تصف السحر أى هى ساحرة ، وقده يصف الرشاقة ؛ على معنى أنه رشيق على سبيل المبالغة ، حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له قال أبو العلاء :

سرى برق المعرة بعد وهن … فبات برامة يصف الملالا

أى سيجزيهم الله تعالى جزاء وصفهم ، لأن حكمته تعالى فى الخلق وعلمه بشئونهم ، جعل عقابهم عين ما يقتضيه وصفهم ونعتهم الروحى ، إذ لكل نفس فى الآخرة صفات تجعلها فى مكان معين سواء أكان فى أعلى عليين أم فى أسفل سافلين .

والخلاصة — إن منشأ الجزاء نفس الإنسان باعتبار عقائدها وسائر صفاتها التى يطبعها العمل عليها .

وقد يكون المعنى — سيجزيهم وصفهم لربهم بما جعلوا له من الشركاء فى العبادة والتشريع ، أو وصف ألسنتهم الكذب بما افتروا عليه فيهما كما قال تعالى : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » الآية .

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين) أنكر سبحانه على مشركى العرب أمرين عظيمين ونعاهما عليهم ، وحكم فيهم حكما عدلا وهما :

(١) قتل أولادهم ووأد بناتهم ، وبذلك خسروا خسرانا مبينا ، فإن قتل الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يرجى من العزة والنصرة ، والسرور والغبطة ، والبر والصلة ، وخسران العاطفة الأبوية ورأفتها واستبدال القسوة والغلظة بها ، إلى نحو أولئك من مساوى الأخلاق التى يضيق بها العيش فى الدنيا ، وبها يحل العقاب فى الآخرة .

(٢) تحريم ما رزقهم الله من الطيبات .

وقد نعى الله عليهم هذين الجُرمين وعللهما بالخسران والسفاهة وعدم العلم والافتراء على الله والضلال وعدم الاهتداء .

أما الخسران فلأن الولد نعمة من الله على العبد ، فإذا سعى العبد فى زوالها فقد خسر خسرانا عظيما ، إذ هو قد استحق الذم فى الدنيا وقال الناس إنه قتل ولده خوف أن يأكل طعامه ، والعقاب فى الآخرة ، لأنه ألحق أعظم أنواع الأذى بأقرب الناس محبة إليه .

وأما السفاهة ، وهى اضطراب النفس وحماقتها ، فلأنه أقدم على ضرر محقق وهو القتل خوفا من ضرر موهوم وهو الفقر .

وأما عدم العلم بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقبح فذلك من أقبح القبائح والمنكرات .

وأما الافتراء على الله فلأنهم جعلوه دينا يتقرب به إليه وهو جرأة عليه ، وذلك من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر .

وأما الضلال المبين فلأنهم لم يرشدوا إلى مصالح الدين ولا منافع الدنيا .

وأما عدم الاهتداء إلى شىء من الحق والصواب ، فلأنهم لم يعملوا بمقتضى العقل ولا بهدى الشرع فى منافع الدنيا وسعادة الآخرة .

وفائدة قوله وما كانوا مهتدين — بيان أنهم لم يحصل لهم اهتداء قط ، والإنسان أحيانا قد يضل ثم يهتدى ولكن هؤلاء لم يحصل لهم الاهتداء بحال .

أخرج البخارى عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها — إلى قوله وما كانوا مهتدين) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة أنه قال فى الآية : هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة و يغذو كلبه .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) .

شرح المفردات

الإنشاء : إيجاد الأحياء وتربيتها وكل ما يكمل بالتدريج كإنشاء السحاب والدور والشعر، والجنات : البساتين والكروم الملتفة الأشجار، لأنها تجنّ الأرض وتسترها ، والمعروشات : المحمولات على العرائش ، وهى الدعائم التى يوضع عليها مثل السقف من العيدان والقصب ، غير المعروشات : مالم يعرش منها ، والمراد أن الجنات نوعان : نوع المعروشات كالكرم ؛ ونوع غير المعروشات من سائر أنواع الشجر الذى يستوى على سوقه ولا يتسلق على غيره ، والأكل (بضم الهمزة والكاف) ما يؤكل ، متشابها أى فى النظر ، وغير متشابه أى فى الطعم ، والحمولة : الكبير من الإبل والبقر الذى

يحمل عليه الناس الأثقال ، والفرش : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الابل والبقر ، أو هو ما يتخذ الفرش من صوفه ووبره وشعره ؛ والخطوات واحدها خطوة (بالضم) : وهى المسافة التى بين القدمين ، مااشتملت عيه الأرحام : هى الأجنّة .

المعنى الجملى

علمت فيما سلف أن أصول الدين التى عنى الكتاب الكريم بذكرها ، واهتم ببيانها ، وكررها المرة إثر المرة ـ هى التوحيد والنبوة والبعث والقضاء والقدر، وقد بالغ سبحانه فى تقرير هذه الأصول وأتبعها بذكر آراء لهم سخيفة وكلمات فاسدة فى التحليل والتحريم ، تنبيها إلى ضعف عقولهم ، وتنفيرا للناس من اتباع آرائهم والسير على أهوائهم .

وهنا عاد إلى المقصود الأصلى وهو توحيد الله باعتقاد الألوهية ، والربوبية له وإفراده بالعبادة وحق التشريع ، إذ لا رب غيره ، ولا خالق سواه يعبد معه أو من دونه ، ولا شارع سواه لعبادة ولا تحليل ولا تحريم .

الإيضاح

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله) أى وربكم أيها الناس هو الذى ابتدع البساتين والكروم الملتفة الأشجار والتى تجن الأرض وتسترها ، سواء المعروش منها وغير المعروش ، وأنشأ النخل والزرع المختلف الطعم واللون والرائحة والشكل .

والنخل وإن كان من قسم الجنات غير المعروشات ، ذكر على سبيل الانفراد لما فيه من المنافع الكثيرة ولا سيما للعرب ، فإن بسره ورطبه فاكهة وغذاء ، وتمره من أفضل الأقوات التى تدخر ، ومن أيسرها تناولا فى السفر والحضر ، ولا يحتاج

إلى طبخ ولا إلى معالجة ، ونواه علف لرواحلهم ، ويتخذ منه شراب لذيذ إذا نبذ فى الماء زمنا قليلا – إلى ما فى خوصه وليفه من الفوائد والمنافع .

وبهذه الفوائد يفضل الكرم الذى هو أقرب الشجر منه تفكها وتغذية وشربا وأشبهه به شكلا ولونا فى عنبه وزبيبه ومنافعه .

والزرع وهو النبات الذى يكون بحرث الناس ، يشمل كل ما يزرع لكنه خص بما يأتى منه القوت كالقمح والشعير ؛ وقد ذكرت هذه الأنواع على طريق الترقى من الأدنى فى التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم ، فإن الحبوب هى التى عليها المعول فى الاقتيات .

(والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه) أى وأنشأ الزيتون والرمان متشابها فى المنظر ، وغير متشابه فى الطعم .

(كلوا من ثمره إذا أثمر) أى كلوا من ثمر ذلك الذى ذكر إذا أثمر وإن لم يدرك وينع .

وخلاصة ما سلف — إنه سبحانه بعد أن أعلم عباده بأنه هو الذى أنشأ لهم مافى الأرض من الشجر والنبات الذى يستعملون منه أقواتهم — أعلمهم بأنه أباح ذلك كله لهم ، فليس لأحد غيره أن يحرم شيئا منه عليهم ، لأن التحريم حق لله الخالق للعباد والأقوات جميعا ، فمن ادعاه لنفسه فقد جعل نفسه شريكا له تعالى ، كما أن من أذعن لتحريم غير الله فقد أشركه معه سبحانه وتعالى .

والتحريم الذى لا يكون إلا لله هو تحريم التشريع ، أما المنع من بعض هذا الثمر لسبب غير ذلك فلا شرك فيه ، فإذا منع الطبيب بعض المرضى من أكل الثمر أو الخبز لأنه يضره يكون منعاً شرعياً أو تحريما لا على معنى أن الطبيب هو الذى شرع ذلك ، بل الله هو الذى حرم كل ضار والطبيب هو الذى عرف المريض ضرره .

وكذلك منع السلطان من صيد بعض الطيور لمصلحة عامة كالحاجة إلى كثرته لحفظ بعض الزرع ، لأنه يأكل الحشرات المهلكة مثلا لا يكون تحريما ذاتيا

بل تحريما مؤقتا ما دام السبب والسلطان هو المكلف شرعا بصيانة المصالح ودرء المفاسد وليس له أن يحرم بمحض إرادته ، وإذا هو أخطأ فى اجتهاده وجب على الأمة الإنكار عليه ، ووجب عليه أن يرجع إلى الحق .

وفائدة قوله إذا أثمر — بيان أن أول وقت لإباحة الأكل هو وقت الإثمار ، وليس بلازم أن يدرك وينع ، فالكرم ينتفع بثمره حِصْرِما فعنبا فزبيبا ، والنخل يؤكل ثمره بُسرا فرطبا فتمرا ، والقمح يطحن ويؤكل خبزا أو يطبخ أو يعمل حلوى على أشكال شتى .

(وآتوا حقه يوم حصاده) أى وآتوا الحق المعلوم فيما ذكر من الزرع وغيره لمستحقيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين زمن حصاده جملة ، ويدخل فى الحصاد جنى العنب وصَرْم النخل .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » قال ما سقط من السنبل وقال مجاهد فيه : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، فإذا دسته فحضرك المساكين فاطرح لهم ، فإذا أذريته وجمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته ، وإذا بلغ النخل وحضرك المساكين فاطرح لهم من التفاريق والبسر ، فإذا جددته (قطعته) فحضرك المساكين فاطرح لهم منه ، فإذا جمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته .

وعن ميمون بن مِهْران وزيد بن الأصم أن أهل المدينة كانوا إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد فيجىء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » .

وعن سعيد بن جُبير قال : كان هذا قبل أن تنزل الزكاة . الرجل يعطى من زرعه ويعلف الدابة ويعطى اليتامى والمساكين ويعطى الضِّغْث ، يريد أن هذا الأمر فى الصدقة المطلقة غير المعينة ، ومما يؤيد هذا أن السورة مكية والزكاة المحدودة فرضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة .

(ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) أى كلوا مما رزقكم الله من غير إسراف فى الأكل كما قال فى آية أخرى : «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ».

والاعتداء والإسراف : مجاوزة الحد ، والحد الذى ينهى الله عن تجاوزه إما شرعى كتجاوز الحلال من الطعام والشراب وما يتعلق بهما إلى الحرام ، و إما فطرى طبعى وهو تجاوز حد الشبع إلى البطنة الضارة .

(ومن الأنعام حمولة وفرشا) أى وأنشأ من الأنعام كبارا منها تصلح للحمل ، وصغارا مثل الفصلان ، دانية من الأرض لصغر أجرامها كالفرش المفروش عليها .

(كلوا مما رزقكم الله) أى كلوا من هذه الأنعام وغيرها وانتفعوا بها بسائر ضروب الانتفاع المباحة شرعا .

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فتحرموا مالم يحرمه الله عليكم ، فإن ذلك إغواء منه ، والله المبدع قد أباحها لكم فليس لغيره أن يحرم أو يحلل ، ولا أن يتعبدكم به .

ويقال لمن اتبع آخر فى أمر وبالغ فى التأسى به — اتبع خطواته ، ولا شك أن تحريم ما أحل الله من أقبح المبالغات فى اتباع إغواء الشيطان ، لأنه اتباع له فى حرمان النفس من الطيبات ، لا فى الاستمتاع باللذات كما هو أكثر غوايته ؛ ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنه لكم عدو مبين) أى لا تتبعوه لأنه ظاهر العداوة بيّنها ، لا يأمر إلا بكل قبيح يسوء فعله حالا أو استقبالا ، ويأمركم بالافتراء على الله بغير علم كما قال عز اسمه : « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

وبعد أن ذكر سبحانه أن الأنعام إما حمولة وإما فرش ، فصلها وقسمها ثمانية أزواج ، فإن الحمولة إما إبل وإما بقر ، والفرش إما ضأن وإما معز ، وكل من الأقسام الأربعة إما ذكر وإما أنثى ، وكل هذا لإيضاح المحالّ التى تقوّلوها على الله تعالى بالتحريم والتحليل ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافترائهم فى كل محل من هذه المحال بتوجيه الإنكار إليها مفصلة فقال :

(ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم مااشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين : ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) أى أنشأ سبحانه من الضأن زوجين الكبش والنعجة ، ومن المعز زوجين التيس والعنز ، وهذه الأنواع الأربعة تفصيل للفرش ، فقل لهم أيها الرسول تبكيتا وتوبيخا : أحرم الله الذكرين الكبش والتيس من ذينك النوعين أم حرم الأنثيين النعجة والعنز أم حرم ما حملت إناث النوعين ؟ أخبرونى ببينة تدل على ذلك من كتاب الله أو خبر من أنبيائه إن كنتم صادقين فى دعوى التحريم .

وكذلك أنشأ من الابل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة ، فقل لهم تأنيبا وإنكارا وإلزاما للحجة . أحرم الذكرين منهما أم حرم الأنثيين أم مااشتملت عليه أرحام الأنثيين من ذينك النوعين ؟ .

وخلاصة ذلك — إن المشركين فى الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام ، فاحتج سبحانه على إبطال ذلك — بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكرا وأنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراما ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراما ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الإناث وجب تحريم الأولاد كلها ، لأن الأرحام تشتمل على الذكور والإناث.

وقصارى ذلك — إنه تعالى ما حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة ، وإنهم كاذبون فى دعوى التحريم ، وقد فصل ذلك أتم التفصيل مبالغة فى الرد عليهم .

ثم زاد فى الإنكار والتهكم بهم فقال :

(أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) أى أعندكم علم يؤثر عن أحد من رسله فتنبئونى به ، أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة ؟ — كلاّ ، ما حصل هذا ولا ذاك ، فما هو إلا محض افتراء على الله يقلد فيه بعضكم بعضا بقوله إن الله حرم علينا كذا وكذا كما قال تعالى : « وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ؟ » .

والخلاصة — إنكم إذ لم تؤمنوا بنبي فلا طريق لكم إلى علم ذلك على حسب ما تقولون إلا أن تشاهدوا ربكم وتتلقوا منه أحكام الحلال والحرام .

وبعد أن نفى الأمرين بالبرهان أثبت أنه افتراء على الله لإضلال عباده وهو ظلم يجنيه الإنسان على نفسه وعلى غيره ويجنى سوء عاقبته ، ومن ثم قال :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) أى لا أحد أظلم منكم ، لأنكم من هؤلاء المفترين على الله بقصد الإضلال عن جهل تام .

ونفى العلم شامل لما يؤثر أو يعقل ويستنبط كالنظر العقلى والتجارب العملية وطرق درء المفاسد والشرور وتقدير المصالح وعمل البر والخير .

والخلاصة — إن فى ذلك تسجيل الغباوة عليهم وعمى البصيرة باتباعهم محض التقليد من غير عقل ولا هوى ، فإن عملهم ليس له أثارة من علم ولا قصد إلى شيء من الهدى إلى حق أو خير .

وقد وجد فى البشر ناس فكروا وبحثوا فيما يجب عليهم لله من الشكر والعبادة واتباع الحق والعدل وفعل الخير على حسب ما يرشد إليه العقل ، وفيما ينبغى لهم أن يجتنبوه من الطعام والشراب فأصابوا فى بعض ماهدتهم إليه عقولهم وأخطئوا فى بعض ، وكانوا خير الناس للناس على حين فترة من الرسل ، كما فعل قُصَى

إذ وضع للعرب سننا حسنة كسقاية الحاج ورفادتهم وإطعامهم ، وسن الشورى في مهامّ الأمور .

(إن الله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق للرشاد من افترى عليه الكذب وقال عليه الزور والبهتان ، ولا يهديه إلى الحق والعدل لا من طريق الوحى ولا من طريق العلم ، بل يصده عن استعمال عقله فيما يهديه إلى الصواب وعما فيه صلاحه عاجلا وآجلا .

قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) .

شرح المفردات

الطاعم: الآكل، والميتة : البهيمة ماتت حتف أنفها ، والمسفوح : المصبوب السائل كالدم الذى يجرى من المذبوح ، رجس أى قذر قبيح ، الإهلال: رفع الصوت ، والمراد به الذبح باسم الأصنام ، اضطر أى أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء منه ، وباغ أى طالب لذلك قاصد له ، عاد أى متجاوز قدر الضرورة ، الذين هادوا : هم اليهود لقولهم : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» أى رجعنا وتبنا ، الظفر للانسان وغيره: مما لا يصيد ،

والمخلب لما يصيد ، والشحم : مايكون على الأمعاء والكرش والكُلى من المادة الدهنية ، حملت ظهورها أى علقت بها ، والحوايا : المباعر أو المرابض (مجتمع الأمعاء فى البطن) أو المصارين والأمعاء ، بأسه أى عذابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرّم شيئا من الطعام ولا غيره إلا بوحى من ربه على لسان رسله ، ومن فعل ذلك يكون مفتريا على الله معتديا على مقام الربوبية ، ومن اتبعه فى ذلك فقد اتخذه شريكا لله تعالى ، وأبان أن من هذا الافتراء ما حرّمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحرث .

قفى على ذلك بذكر ما حرمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله وألسنة بعض الرسل قبله.

أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً » الآية .

الإيضاح

(قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم مالم يحرم عليهم ، وقل لغيرهم من الناس : لا أجد فيما أوحاه إلىّ ربى طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله — إلا أن يكون ميتة لم تذك ذكاة شرعية ، وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، وللمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دما مسفوحا أى سائلا كالدم الذى يجرى من المذبوح ، فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبد والطحال ، وفى الحديث « أحلت لنا ميتتان السمك والجراد ، ودمان الكبد والطحال » أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك

خبيث تعافه الطباع السيمة ، وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقا أهل لغير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبدا ويذكر اسمه عليه عند ذبحه .

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) أى فمن دفعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شىء من هذه المحرمات حال كونه غير مريد لذلك ولا قاصد له ، ولا متجاوز حد الضرورة — فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره — غفور رحيم ، فلا يؤاخذه بأكل مايسد به مخمصته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

والخلاصة — قل لا أجد فيما أوحى إلىّ من أخبار الأنبياء وشرائعهم ، ولا فيما شرع على لسانى — أن الله حرم أىّ طعام إلا هذه الأنواع الأربعة ، وما حرمه على اليهود تحريما مؤقتا عقوبة لهم وهو ما ذكر أهمه فى الآية التالية ، ودليل التوقيت قوله فى سورة آل عمران : « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » وقوله مخاطبا من يتبع النبى صلى الله عليه وسلم منهم : « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ » ودليل كونه عقوبة لا لذاته قوله : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ » .

وما صح من الأحاديث فى النهى عن طعام غير هذه الأنواع الأربعة فهو ما مؤقت لعارض وإما للكراهة فقط ، ومن الأول تحريم الحمر الأهلية : فقد روى ابن أبى شيبة والبخارى عن ابن عمر قال : «نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » ومن الثانى ما رواه البخارى ومسلم عن أبى ثعلبة الخشنى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » .

ثم بين سبحانه ما حرمه على بنى إسرائيل خاصة عقوبة لهم لا على أنه من أصول شرعه على ألسنة رسله قبلهم أو بعدهم فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) أى وعلى الذين هادوا دون غيرهم من أتباع الرسل حرمنا كل ذى ظفر أى ماليس بمنفرج الأصابع كالإبل والنعام والإوز والبط كما قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد .

(ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم) أى إنه حرم عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شىء منه ، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة وهى الثروب (واحدها ثَرْب ، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش) وشحوم الكلى .

والخلاصة — ومن البقر والغنم دون غيرهما مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة لعدم اختلاطها بلحم ولا عظم ، ولم نحرم عليهم ما حملت الظهور أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، والسبب فى تخصيص البقر والغنم بهذا الحكم أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما ، وكان يتخذ من شحمهما الوقود للرب كما ذكر ذلك فى الفصل الثالث من سفر اللاويين فقد جاء فيه بعد التفصيل فى قرابين السلامة من البقر والغنم (كلّ الشحم للرب فريضة فى أجيالكم فى جميع مساكنهم . لا تأكلوا شيئا من الشحم ولا الدم) .

(ذلك جزيناهم ببغيهم) أى إنما حرم الله ذلك عليهم عقوبة ببغيهم فشدد عليهم بذلك ، وليس ذلك بالخبيث لذاته .

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود من الأنباء التى لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ولا قومه يعلمون منها شيئا لأميتهم ، وكان مظنة تكذيب المشركين له ، لأنهم لا يؤمنون بالوحى ومظنة تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عقوبة ببغيهم وظلمهم ، أكده فقال :

(وإنا لصادقون) أى وإنا لصادقون فى هذه الأخبار عن التحريم وعلته ، لأن أخبارنا صادرة عن العلم المحيط بكل شىء ، ولأن الكذب محال علينا ، لأنه نقص فلا يصدر عنا .

(فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين)

هذا الخطاب إما لليهود وهو المروى عن مجاهد والسدى ، وإما لمشركى مكة .

فعلى الأول يكون المعنى — فإن كذبك اليهود وثقل عليهم أن يكون بعض شرعهم عقابا لهم على ما كان من بغيهم على الناس وظلمهم لهم ولأنفسهم ، واحتجوا على إنكار كونه عقوبة بكون الشرع رحمة من الله — فأجابهم بما يدحض هذه الشبهة بأن رحمة الله واسعة حتما ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه ويمنع عقابه عن القوم المجرمين ، فإصابة الناس بالمحْق والشدائد عقابا لهم على جرائم ارتكبوها ، قد تكون رحمة بهم ، وقد تكون عبرة وموعظة لغيرهم لينتهوا عن مثلها ، وهذا العقاب من سنن الله المطردة فى الأمم وإن لم يطرد فى الأفراد .

وعلى الثانى يكون المعنى — فإن كذبك المشركون فيما فصلناه من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم : ربكم ذو رحمة واسعة ولا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم ، فلا تغتروا به فإنه إمهال لكم لا إهمال لمجازاتكم .

وفى هذا تهديد لهم ووعيد إذا هم أصروا على كفرهم وافترائهم على الله بتحريم ما حرموا على أنفسهم ، كما أن فيه إطماعا لهم فى رحمته الواسعة إذا رجعوا عن إجرامهم وآمنوا بما جاء به الرسول ، فيسعدون فى الدنيا بحل الطيبات وفى الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنات .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا

فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) .

شرح المفردات

الخرص : الحزر والتخمين ويراد به لازمه وهو الكذب ، الحجة : الدلالة المبينة للقصد المستقيم ، هلم أى أحضروا ، يعدلون أى يتخذون له مثلا وعديلا يعادله ويشاركه .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سالف الآيات فى تفصيل أصول الإسلام من توحيد الله والنبوة والبعث ، وفى دحض شبهات المشركين التى كانوا يحتجون بها على شركهم وتكذيبهم للرسل وإنكارهم للبعث ، وفى بيان أعمالهم التى هى دلائل على الشرك من التحريم والتحليل بخرافات وأوهام .

وهنا ذكر شبهة لهم مثّل بمثلها كثير من الكفار ، وهم وإن لم يكونوا قالوها وأوردوها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الله المحيط علمه بكل شىء يعلم أنهم سيقولونها ، فذكرها ورد عليها بما يبطلها ، وكان ذلك من إخباره بأمور الغيب قبل وقوعها .

الإيضاح

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) أى سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله ألا نشرك به من اتخذنا من الأولياء والشفعاء من الملائكة والبشر ، وألا نعظم ما عظمنا من تماثيلهم وصورهم ، وألا يشرك آباؤنا من قبلنا — لما أشركنا ولا أشركوا ، ولو شاء ألا نحرم شيئا مما حرمنا من الحرث والأنعام وغيرها — لما حرمنا ، ولكنه شاء أن نشرك به هؤلاء الأولياء والشفعاء

ليقربونا إليه زلفى ، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها لحرمناها ، فإتياننا إياها دليل على مشيئته تعالى وعلى رضاه وأمره بها .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وقوله: « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » .

وقد رد عليهم شبهتهم فقال :

(كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) أى ومثل ذلك التكذيب الذى صدر من مشركى مكة لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إبطال الشرك وإثبات توحيد الله فى الألوهية والربوبية ، ومنها حق التشريع والتحليل والتحريم — كذب الذين من قبلهم لرسلهم تكذيبا غير مبنى على أساس من العلم .

والرسل صلوات الله عليهم قد أقاموا الحجج والبراهين العلمية والعقلية على التوحيد وغيره مما ادعوا ، وأيدهم الله بباهر الآيات ، ولكن المكذبين لم ينظروا فيها نظرة إنصاف ، بل أعرضوا عنها وأصروا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا بأسه تعالى وأهلكهم بذنوبهم وصاروا كأمس الدابر .

ولو كانت مشيئة الله لما كانوا عليه من الشرك تتضمن رضاه عن فاعلها وأمره بها لما عاقبهم عليها تصديقا لما قال الرسل ، كذلك لو كانت أعمالهم بالجبر المخرج لها عن كونها من أعمالهم ، لما استحقوا العقاب عليها ، ولما قال إنه أخذهم بذنوبهم ، وأهلكهم بظلمهم وكفرهم ونحو ذلك مما جاء فى كثير من الآيات .

فقوله : (حتى ذاقوا بأسنا) برهان دالّ على صدق الرسل فى دعواهم وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم .

وبعد أن ذكرهم بالبرهان الواضح أمر رسوله أن يطالبهم بدليل يثبت ما يزعمون فقال :

(قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟) أى هل عندكم بما تقولون علم تعتمدون عليه وتحتجون به ، فتخرجوه لنا لنتفهمه ونوازن بينه و بين ماجئنا كم به من الآيات العقلية والوقائع المحكية عن الأمم قبلكم ونتبين منها الراجح من المرجوح ؟ وفى هذا الاستفهام من التعجيز والتوبيخ ما لا يخفى .

ثم قفى على ذلك ببيان حقيقة حالهم فقال :

(إن تتبعون إلا الظن و إن أنتم إلا تخرصون) أى إنكم لستم على شىء من العلم . بل ما تتبعون فى عقائدكم وآرائكم فى الدين والعمل به إلا الحدس والتخمين الذى لا يستقر عنده حكم .

و بعد أن نفى عنهم درجات العلم أثبت لذاته الحجة البالغة التى لا تعلوها حجة فقال :

(قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين بعد تعجيزك إياهم عن أن يأتوا بأدنى دليل أو قول يرقى إلى أضعف درجة من العلم : إن لم يكن عندكم علم فى أمر دينكم ، فإن لله وحده أعلى درجات العلم وله الحجة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق و إزهاق الباطل بما بينه فى هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة وسنن الله فى الاجتماع البشرى ، ولكن لا يهتدى بهذه الآيات إلا المستعد للهداية المحب للحق الحريص على طلبه الذى يستمع القول فيتبع أحسنه ، دون من أعرض عن النظر فيها استكبارا عنها وحسدا للمبلّغ الذى جاء بها ، وجمودا على تقاليد الآباء واتباع الرؤساء .

ولو شاء سبحانه أن يهديكم بغير هذه الطريق التى أقام أمر البشر عليها وهى التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال — لهداكم أجمعين ، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة المفطورين على الحق والخير وطاعة الله جل شأنه كما قال سبحانه عنهم : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ويجعل الطاعة فيكم بغير

شعور منكم ولا إرادة كما يجرى الدم فى أبدانكم ، أو مع الشعور بأنها ليست من أفعالكم ، وحينئذ لاتكونون من نوع الإنسان الذى قضت الحكمة وسبق العلم بخلقه مستعدا لعمل الخير والشر والحق والباطل ، ويرجح أحدهما على الآخر بالاختيار ، والاختيار لأحدهما بمشيئته ، لا ينفى مشيئة الله تعالى ولا يعارضها ، فإنه هو الذى شاء أن يجعله فاعلا باختياره .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا » وقوله : « مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وقوله : « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » وقوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

و بعد أن نفى عنهم العلم وسجل عليهم اتباع الخرص والكذب ، ليظهر لهم أنهم ليسوا على شىء يعتد به من العلم — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالب مشركى قومه بإحضار من عساه يعتمدون عليه من الشهداء فى إثبات تحريم الله تعالى عليهم ما ادعوه من المحرمات فقال :

(قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أى أحضروا شهداءكم الذين يخبرون عن مشاهدة وعيان أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه .

والخلاصة - عليكم أن تحضروا من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأمة الأحكام الدينية وغيرها بالأدلة الصحيحة التى تجعل النظريات العلمية كأنها مشاهدات حسية من يشهد لكم بصحة ما تدعون .

(فإن شهدوا فلا تشهد معهم) أى فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود فلا تصدقهم ولا تقبل لهم شهادة ، ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت على الباطل كالشهادة به .

(ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى ولا تتبع أهواء هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا المنزلة ، وبما أرشدت إليه من الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق .

(والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) أى والذين هم مع جهلهم واتباعهم للأهواء لايؤمنون بالآخرة حتى يحملهم الإيمان بها على سماع الدليل والحجة إذا ذكروا بها ، ويشركون بربهم ويتخذون له مثلا وعدلا يشاركه فى جلب الخير والنفع ودفع الضر، إما استقلالا وإما بحمله الرب على ذلك وتأثيره فى عمله وإرادته .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لعباده جميع ما حرم عليهم من الطعام ، وذكر حجته البالغة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم مالم يحرمه عليهم ربهم ، ودحض شبهتهم التى احتجوا بها على شركهم بربهم وافترائهم عليه .

ذكر فى هذه الآيات أصول المحرمات فى الأقوال والأفعال ، وأصول الفضائل وأنواع البر .

الإيضاح

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم فيما يحلون وما يحرمون لأنفسهم وللناس : أقبلوا إلىّ أيها القوم أقرأ لكم ماحرم ربكم عليكم فيما أوحاه إلىّ ، وهو وحده له حق التحريم والتشريع ، وأنا مبلغ عنه بإذنه وقد أرسلنى بذلك .

وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا أعم ؛ لأن بيان المحرمات يستلزم حل ماعداها ، وقد بدأها بأكبر المحرمات وأعظمها وأشدها إفسادا للعقل والفطرة ، وهو الشرك بالله ، سواء أكان باتخاذ الأنداد له أو الشفعاء المؤثرين فى إرادته ، أو بما يذكّر بهم من صور وتماثيل وأصنام وقبور ، أو باتخاذ الأرباب الذين يتحكمون فى التشريع فيحللون و يحرمون فقال :

(١) (ألا تشركوا به شيئا) أى ومما أتلوه عليكم فى بيان هذه المحرمات وما يقابلها من الواجبات — ألا تشركوا بالله شيئا من الأشياء و إن عظمت فى الخلق كالشمس والقمر والكواكب ، أو فى القدر كالملائكة والنبيين والصالحين ، فإن عظمتها لا تخرجها عن كونها مخلوقة لله ، مسخرة له بقدرته و إرادته : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا » .

و يلزم هذا أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم .

(٢) (وبالوالدين إحسانا) أى وأحسنوا بالوالدين إحسانا تاما كاملا ، لا تدخرون فيه وسعا ، ولا تألون فيه جهدا ، وهذا يستلزم ترك الإساءة و إن صغرت ، فما بالك بالعقوق الذى هو من أكبر الكبائر وأعظم الآثام ، وقد جاء فى القرآن غير مرة قرن التوحيد والنهى عن الشرك بالأمر بالإحسان إلى الوالدين .

وكفى دلالة على عظيم عناية الشارع بأمر الوالدين أن قرنه بعبادته وجعله

ثانيها فى الوصايا ، وأكده بما أكده به فى سورة الإسراء ، كما قرن شكرهما بشكره فى سورة لقمان فى قوله : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » وما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » قلت ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » .

والمراد ببرهما احترامهما احترام المحبة والكرامة ، لا احترام الخوف والرهبة ، لأن فى ذلك مفسدة كبيرة فى تربية الأولاد فى الصغر ، وإلجاء لهم إلى العقوق فى الكبر ، وإلى ظلم الأولاد لهم كما ظلمهم آباؤهم ، وليس لهما أن يتحكما فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا سيما تزويجهم بمن يكرهون ، أو منعهم من الهجرة لطلب العلم النافع أو لكسب المال والجاه إلى نحو ذلك :

(٣) (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) أى ومما وصاكم به ربكم ألا تقتلوا أولادكم الصغار لفقر يحل بكم ، فإن الله يرزقكم وإياهم أى يرزقهم تبعا لكم ، وجاء فى سورة الإسراء : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » .

وسر اختلاف الأسلوبين وتقديم رزق الأولاد هناك على رزق الوالدين على عكس ما هنا — أن ما هناك متعلق بالفقر المتوقع فى المستقبل الذى يكون فيه الأولاد كبارا كاسبين ، وقد يصير الوالدون فى حاجة إليهم لعجزهم عن الكسب بالكبر ، ففرق فى تعليل النهى فى الآيتين بين الفقر الواقع والفقر المتوقع ، فقدم فى كل منهما ضمان رزق الكاسب ، للإيماء إلى أنه تعالى جعل كسب العباد سببا للرزق ، لا كما يتوهم بعضهم فيزهد فى العمل بشبهة كفالته تعالى لرزقهم .

(٤) (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) أى ولا تقربوا ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال كالزنا وقذف المحصنات سواء منه ما فعل علناً وما فعل سرا ،

وقيل الظاهر ما تعلق بأعمال الجوارح ، والباطن ماتعلق بأعمال القلوب كالكبر والحسد والتفكير فى تدبير المكايد الضارة وأنواع الشرور والمآثم .

وقد روى عن ابن عباس فى تفسير الآية أنه قال : كانوا فى الجاهلية لا يرون بأسا بالزنا فى السر ويستقبحونه فى العلانية ، فحرم الله الزنا فى السر والعلانية ، أى فى هذه الآية وما أشبهها .

وأخرج أبو الشيخ عن عِكْرِمة قال : ماظهر منها ظلم الناس ، وما بطن منها الزنا والسرقة ، أى لأن الناس يأتونهما فى الخفاء ، وروى عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش : ما ظهر منها وما بطن » رواه البخارى ومسلم .

(٥) (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) أى ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها بالإسلام أو بالعهد بين المسلمين وغيرهم كأهل الكتاب المقيمين بيننا بعهد وأمان ، وقد جاء فى الحديث : «لهم مالنا وعليهم ماعلينا » وروى الترمذى قوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفا » .

وقوله إلا بالحق إيماء إلى أن قتل النفس قد يكون حقا لجُرْم يصدر منها كما جاء فى الحديث : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » .

والخلاصة — إن قتلها بالحق هو أمر الشارع بإباحة قتلها كقتل القاتل عمدا أو قتل الزانى المحصن .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) الوصية أن يعهد إلى إنسان بعمل خير أو ترك شر ، ويقرن ذلك بوعظ يرجى تأثيره ؛ أى إنه سبحانه وصاكم بذلك ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمنفعة فى فعل ما أمر به وترك مانهى عنه ، إذ هو مما تدركه العقول بأدنى تأمل .

وفى هذا تعريض بأن ماهم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها مما لا تعقل له فائدة ، ولا تظهر فيه لذوى العقول الراجحة مصلحة .

(٦) (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) أى ولا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره ، أو تعاملتم به ولو بواسطة وليه أو وصيه إلا بالفعلة التى هى أحسن فى حفظ ماله وتثميره ، ورجحان مصلحته ، والإنفاق منه على تربيته وتعليمه مابه يصلح معاشه ومعاده .

والنهى عن القرب عن الشىء أبلغ من النهى عنه ، فإن الأول يتضمن النهى عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه ، وعن الشبهات التى هى مظنة التأويل ، فيبتعد عنها المتقى ، ويستسيغها الطامع فيه ، إذ يراها بالتأويل من الوجوه الحلال التى لا تضر به أو يرجُح نفعها على ضررها ، كأن يأكل شيئا من ماله حين يعمل عملا له فيه ربح ولولاه ما ربح .

(حتى يبلغ أشده) والأَشُدُّ مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، ولبلوغه طرفان أدناهما الاحتلام الذى هو مبدأ سن الرشد والقوة التى يخرج بها عن كونه يتيما أو سفيها أو ضعيفا ونهايته سن الأربعين ، والمراد هنا الأول كما قال الشعبى ومالك وآخرون : ويكون ذلك عادة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة .

أى احفظوا مال اليتيم ولا تسمحوا له بتبذير شىء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه حتى يبلغ ، فإذا بلغ فسلموه إليه ، وهذا نظير قوله : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » .

والخلاصة — إن المراد النهى عن كل تعدّ على مال اليتيم وهضم لحقوقه من الأوصياء وغيرهم حتى يبلغ سن القوة بدنًا وعقلا ، إذ قد دلت التجارب على أن الحديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأى قليل الخبرة بشئون المعاش يخدع كثيرا فى المعاملات .

وقد كان الناس فى الجاهلية لا يحترمون إلا القوة ، ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء ومن ثم بالغ الشارع فى الوصية بالضعيفين : المرأة ، واليتيم .

والقوة التى يحفظ بها المرء ماله فى هذا العصر هى اتزان الفكر ، والرشد العقلى والأخلاقى بكثرة المران والتجارب فى المعاملات ، لكثرة الفسق والحيل ووجود أعوان السوء الذين يوسوسون إلى الوارثين ويزينون لهم الإسراف فى اللذات والشهوات على جميع ضروبها حتى لا يتركوهم إلا وهم فقراء ، وقلما يستيقظون من غفلتهم إلا إذا بلغوا سن الكهولة التى يكمل فيها العقل ويفقهون تكاليف الحياة ويهتمون فيها بأمر النسل .

وقد شرط الشارع الحكيم لإيتاء اليتامى أموالهم بلوغ سن الحلم وظهور الرشد فى المعاملات المالية بالاختبار كما سلف فى سورة النساء من قوله : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى » الآية .

(٧) (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) أى وأتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون ، فليكن كل ذلك وافيا تاما بالعدل ، ولا تكونوا من أولئك المطففين الذين وصفهم الله بقوله : « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » .

والخلاصة — إن الإيفاء يكون من الجانبين : حين البيع ، وحين الشراء ، فيرضى المرء لغيره ما يرضاه لنفسه . وقوله : (بالقسط) يدل على تحرّى العدل فى الكيل والميزان حال البيع والشراء بقدر المستطاع .

(لا نكلف نفسا إلا وسعها) أى إن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا ما يسعها فعله ، بأن تأتيه بلا عسر ولا حرج ، فهو لا يكلف من يبيع أو يشترى الأقوات ونحوها أن يزنها أو يكيلها بحيث لا تزيد حبة ولا مثقالا ، بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له أو عليه سواء بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد بهما عرفا .

والقاعدة الشرعية : أن التكليف إنما يكون بما فى وسع المكلف بلا حرج ولا مشقة عليه ، ولو اتبع المسلمون هذه الوصية وعملوا بها لاستقامت أمور معاملاتهم وعظمت الثقة والأمانة بينهم ، ولكن وا أسفا فسدت أمورهم وقلّت ثقتهم بأنفسهم، ووثقوا بغيرهم لاتباعهم هذه الوصية وأمثالها .

وقد قص علينا الكتاب الكريم قصص من طففوا الكيل والميزان فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر بما كان من ظلمهم ، كقوم شعيب وقد حكى الله عنهم ما قال لهم نبيهم شعيب : «وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان : « إنكم وَلِيتم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم » .

(٨) (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) أى وعليكم أن تعدلوا فى القول إذا قلتم قولا فى شهادة أو حكم على أحد ، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة منكم ، إذ بالعدل تصلح شئون الأمم والأفراد ، فهو ركن ركين فى العمران ، وأساس فى الأمور الاجتماعية ، فلا يحل لمؤمن أن يحابى فيه أحدا لقرابة ولا غيرها ، فالعدل كما يكون فى الأفعال كالوزن والكيل يكون فى الأقوال.

ونحو الآية قوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » وقوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ » .

(٩) (وبعهد الله أوفوا) أى وأوفوا بعهد الله ، وهذا شامل لما يأتى :

(ا) ما عهده الله تعالى إلى الناس على ألسنة الرسل .

(ب) ما آتاهم من العقل والوجدان والفطر السليمة كما قال : «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ » وقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ » .

(حـ) ما عاهده الناس عليه كما قال : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ »
وقال : « أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » .

(ى) ما عاهد الناس عليه بعضهم بعضا كما قال فى وصف المؤمنين : « وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » .

فمن آمن برسول من رسله فقد عاهد الله حين الإيمان به أن يمتثل أمره ونهيه ، وما شرعه للناس ووصاهم به فهو مما عهده إليهم ، وما التزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد عليه ربه كما قال تعالى ناعيا على المنافقين سوء فعلهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ » الآية ، وكذلك من عاهد السلطان وبايعه على الطاعة فى المعروف ، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع ، وجب عليه الوفاء إذا لم يكن من قبيل المعصية .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) التذكر يطلق حينا على تكلف ذكر الشيء فى القلب أو التدرج فيه بفعله المرة إثر الأخرى ، وحينا على الاتعاظ والتدبر كما قال تعالى : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » وقال : « سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى » .

والخلاصة — إن ذلك الذى تلوته عليكم من الأوامر والنواهى وصاكم الله به رجاء أن يذكره بعضكم لبعض فى التعليم والتواصى الذى أمر الله به فى مثل قوله : « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » لما فيه من مصالح ومنافع كتدارك النسيان والغفلة من كثرة الشواغل الدنيوية ، أو رجاء أن يتعظ به من سمعه وقرأه .

(١٠) (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) أى و إن هذا القرآن الذى أدعوكم إليه وأدعوكم به إلى مايحييكم ، هو صراطى ومنهاجى الذى أسلكه إلى مرضاة الله ونيل سعادة الدنيا والآخرة ، حال كونه مستقيما لا يضل سالكه ، ولا يهتدى تاركه ، فاتبعوه وحده ، ولا تتبعوا السبل الأخرى التى تخالفه وهى كثيرة ، فتتفرق بكم عن سبيله ، بحيث يذهب كل منهم فى سبيل ضلالة ينتهى بها إلى الهلكة ، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال .

والخلاصة — إن هذا صراطى مستقيم لا عوج فيه ، فعليكم أن تتبعوه إن كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج ، وترجحون الهدى على الضلال .

أخرج أحمد والنسائى وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : « خط رسول الله خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وروى أحمد والترمذى والنسائى مرفوعا : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من جوف الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » .

وجعل الصراط المستقيم واحدا ، والسبل المخالفة متعددة ، لأن الحق واحد والباطل وهو ما خالفه كثير ، فيشمل الأديان الباطلة سواء أكانت وضعية أو سماوية محرفة أو منسوخة .

ونهى عن التفرق فى صراط الحق وسبيله ، لأن التفرق فى الدين الواحد وجعله

مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من خالفه ويرمون أتباعه بالجهل والضلال — سبب لإضاعته ، إذ كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها ، ولا يهمها إثبات الحق وفهم النصوص ، والحق لا يكون وقفا على عالم معين ولا على أتباعه ، بل كل باحث يخطئ ويصيب ، وذلك ما دل عليه العقل وأثبته الكتاب والسنة والإجماع .

ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز أهل الحق — كان التفرق فيه سبب ضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم .

روى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : « ولا تتبعوا السبل » قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه ، وقد ذكرت فى القرآن فى سيق الأوامر والنواهى المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وعشرة وزواج ، وتفسر فى كل موضع بما يناسبه .

أى ذلك الأمر باتباع صراط الحق المستقيم ، والنهى عن سبل الضلالات والأباطيل ، وصاكم ربكم به ، ليهيئكم لاتقاء كل ما يشقى ويردى فى الدنيا والآخرة ، ويوصلكم إلى السعادة العظمى والحياة الصالحة .

وقال الرازى : ختمت الآية الأولى بقوله : لعلكم تعقلون، والثانية بقوله: لعلكم تذكرون ، لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها ، فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها ، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل فى القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به ، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان .

وقال أبو حيان : ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وقد أمر

سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ، ختم الآية الثالثة بالتقوى التى هى اتقاء النار ، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية .

وقد وردت أحاديث كثيرة بشأن هذه الوصايا نقلها الحفاظ الثقات فمن ذلك :

(١) ما أخرجه الترمذى وحسنه وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من سره أن ينظر الى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم — إلى قوله — تتقون) .

(٢) ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، إلى ثلاث آيات ثم قال : فمن وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه و إن شاء عفا عنه» .

(٣) ما أخرجه عبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر عن منذر الثورى قال : قال الربيع بن خيثم : « أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد صلى الله عليه وسلم بخاتمه ؟ قلت نعم ، فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى آخر الآيات » .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى

مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحجج العقلية على أصول هذا الدين ودحض شبهات المعاندين ، وقفى على ذلك بذكر الوصايا العشر فى الآيات الثلاث التى قبل هذه الآيات .

نبه هنا إلى مكانة القرآن من الهداية وإلى وجوب اتباعه ، وذكر أعذار المشركين بما يعلمون أنها لا تصبح لهم عذرا عند الله ، وافتتح هذا التنبيه والتذكير بذكر ما يشبه القرآن فى التشريع ويسير على نهجه فى الهداية ، وهو كتاب موسى عليه السلام الذى اشتهر عند مشركى العرب وعرفوا بالسماع خبره .

الإيضاح

(ثم آتينا موسى الكتاب) فى الكلام تقدير لفظ (قل) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الناس : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به وهو كذا وكذا — ثم قل لهم وأعلمهم أننا آتينا موسى الكتاب ... إلى آخره .

وقد تكرر فى الكتاب الكريم قرنه بالتوراة لما بينهما من التشابه ، فكل منهما شريعة كاملة ، والإنجيل والزبور ليسا كذلك ، فإن أكثر الإنجيل عظات وأمثال ، وأكثر الزبور ثناء ومناجاة — إلى أن العرب كانوا يعلمون أن اليهود لهم كتاب يسمى التوراة ، ولهم رسول يسمى موسى ، وأنهم أهل علم ، وكان يتمنى كثير من عقلائهم لو أتيح لهم كتاب كما أوتى اليهود التوراة ، وأنه لو جاءهم كتاب لكانوا أهدى منهم ، وأعظم انتفاعا به ، لما يمتازون به من الذكاء وحصافة العقل ورجاحة الرأى .

ولما أخبر سبحانه عن القرآن بقوله : « وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ » قفى بمدح التوراة ، كما جاء مثل هذا فى قوله : « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا » وقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ » ثم قال : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » الآية .

وهذه الوصايا العشر التى فى الآيات الثلاث ، والتى لها نظير فى سورة الإسراء — كانت أول ما نزل بمكة قبل تفصيل أحكام العبادات والمعاملات فى السور المدنية ، وكذلك كانت أول ما نزل على موسى من أصول دينه ، لكن وصايا القرآن أجمع للمعانى فهى تبلغ العشرات إذا فصلت .

وهذه الوصايا وما أشبهها هى أصول الأديان على ألسنة الرسل ، يرشد إلى ذلك قوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » .

وليس هذا الدين المشترك الذى أوصى به هؤلاء الرسل الكرام إلا التوحيد ومكارم الأخلاق والتباعد عن الفواحش والمنكرات .

(تماما على الذى أحسن) أى آتيناه الكتاب تماما للنعمة والكرامة على من أحسن فى اتباعه واهتدى به ، كما جاء فى قوله : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا » وقوله : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً » .

وقد يكون المعنى - آتيناه الكتاب تماما كاملا جامعا لما يحتاج إليه من الشرائع كقوله « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » .

(وتفصيلا لكل شىء) أى مفصلا لكل شىء من أحكام الشريعة عباداتها

ومعاملاتها ، مدنية كانت أو حربية أو جنائية ، وهذا كقوله فى صفة القرآن : « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » .

(وهدى ورحمة) أى ودليلا من دلائل الهداية إلى الحق ، وسببا من أسباب الرحمة لمن اهتدى به ، فينجيه الله من الضلالة ، وعمى الحيرة .

(لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) أى آتيناه الكتاب جامعا لكل ما ذكر ، ليجعل قومه محل رجاء للايمان بالله تعالى ، وموضع الفوز فى دار الكرامة ، تلك الدار التى أعدها الله لمن اهتدى بوحيه .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أى وهذا القرآن الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه — كتاب عظيم شأنه ، أنزلناه بوساطة الروح الأمين ، كما أنزلنا الكتاب على موسى ، وهو مبارك أى كثير الخير دينا ودنيا ، جامع لأسباب الهداية الدائمة ، وقد جاء بأكثر مما فى كتاب موسى من تفصيل لهدى البشر فى معاشهم ومعادهم .

(فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) أى فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم عنه ، وحذركم إياه ، لتكون رحمته مرجوة لكم فى الدنيا والآخرة .

(أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) الدراسة: القراءة والعلم كما جاء فى قوله : « وَدَرَسُوا مَافِيهِ » أى علموا ما فيه ولم يأتوه بجهالة .

أى أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله ، وطريق طاعته ، وتزكية النفوس من أدران الشرك ، لئلا تقولوا يوم الحساب والجزاء معتذرين عن شرككم وإجرامكم : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وهما اليهود والنصارى، وقد كنا عن تلاوتهم للكتاب الذى أنزل عليهم غافلين ، لا ندرى ماهى لعدم فهمنا ما يقولون لأنها بلسان غير لساننا ، ولأنهم أهله دوننا ، ولأنا لم نؤمر بما فيه ، ولغلبة الأمية علينا .

(أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) أى ولئلا تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين قبلنا ، فأمرنا بما فيه ونهينا

عما نهى عنه ، و بين لنا خطأ ما نحن فيه — لكنا أهدى منهم ، لأنا أذكى منهم أفئدة ، وأمضى عزيمة ، وقد حكى الله عنهم مثل هذا فى قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ » أى من إحدى الأمم المجاورة لهم من أهل الكتاب .

فرد الله عليهم بجواب قاطع لكل تعلة ، دافع لكل اعتذار فقال :

(فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) البينة فى اللغة ما بيّن الحق ، أى فقد جاءكم كتاب مبين للحق بالحجج والبراهين فى العقائد والفضائل والآداب وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع ، وهو هادٍ لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ؛ إذ يجذب ببلاغته و بيانه قلوب الناظرين فيه إلى الحق الذى فصله أتمّ تفصيل و إلى عمل الخير والصلاح الذى بين فوائده ومنافعه ؛ وهو رحمة عامة لمن يستضيئون بنوره ، وتنفذ فيهم شريعته ، إذ هم يكونون فى ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحراراً فى عقائدهم وعباداتهم ، يعيشون فى بيئة خالية من الفواحش والمنكرات .

(فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) صدف، أعرض: أى و إذا كانت هذه الآيات مشتملة على الهداية الكاملة ، والرحمة الشاملة ، فلا أظلم ممن كذب بها وأعرض عنها ، أو لم يكتف بذلك ، بل صرف الناس عنها كما كان يفعل كبراء مجرمى قريش بمكة ، فقد كانوا يصدفون العرب عن النبى صلى الله عليه وسلم ، و يحولون بينه و بينهم ، لئلا يسمعوا منه القرآن فينجذبوا إلى الإيمان .

ونحو الآية قوله : « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » .

(سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) أى سنجزى الذين يصدفون الناس عن آياتنا و يردّونهم عن الاهتداء بها سوء العذاب بسبب ما كانوا يجزون عليه من الصدف عنها ، إذ هم بذلك يحملون أوزارهم وأوزار من صدفوهم عن الحق ، وحالوا بينهم و بين الهداية .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى زدناهم عذابا شديدا بصدهم الناس عن سبيل الله فوق العذاب على كفرهم بسبب إفسادهم فى الأرض بهذا الصدّ عن الحق .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ؟ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر ، وإزاحة للعلة ، وقرن هذا الإعذار بالإنذار الشديد والوعيد بسوء العذاب .

قفى على ذلك ببيان أنه لا أمل فى إيمانهم البتة ، وفصل ما أمامهم وأمام غيرهم من الأمم وما ينتظرونه فى مستقبل أمرهم ، وأنه غير ما يتمنون من موت الرسول وانطفاء نور الإسلام بموته صلوات الله عليه .

الإيضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) ينظرون أى ينتظرون ، والمراد بالملائكة ملائكة الموت الذين يقبضون أرواحهم ، والمراد بإتيان الله إتيان ما وعدبه من النصر لأحبابه وأوعد به أعداءه من العذاب فى الدنيا كما جاء فى قوله : « فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » الآية . وإتيان أمره هو جزاؤهم على نحو ما جاء فى قوله : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ

أَمْرُ رَبِّكَ ؟ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

والخلاصة — إنهم لا ينتظرون إلا أحد أمور ثلاثة : مجىء الملائكة أو مجىء ربك على حسب ما اقترحوا بقولهم : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » وقولهم : « أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » أو مجىء بعض آيات ربك غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » ونحو ذلك من الآيات العظام التى علقوا بها إيمانهم .

وفى الآية إيماء إلى تماديهم فى تكذيب آيات الله ، وعدم اعتدادهم بها ، وأنه لا أمل فى إيمانهم البتة .

(يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) أى يوم يأتى بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطرارى لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل أن تؤمن حينئذ ، ولا نفسا لم تكن كسبت فى إيمانها خيرا وعملا صالحا أن تفعل ذلك بعد مجيئها ، لبطلان التكليف الذى يترتب عليه ثواب الأعمال ، إذ التكليف يستدعى الإرادة والاختيار بالتمكن من الإيمان والكفر وعمل الخير والشر ، وبذا يكون الثواب والعقاب .

وبعض هذه الآيات قد يطلع عليه الأفراد عند الغرغرة قبل خروج الروح ، وبعضها لا يطلعون عليه إلا قبيل يوم القيامة حين مجىء أشراط الساعة .

وقد وردت أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف الذى لا يصلح وحده أن يكون حجة ، أن المراد ببعض الآيات هو طلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة التى ترج الأرض رجا وتبس الجبال بسا ، ويبطل هذا النظام الشمسى بحدوث حادث تتحول فيه حركة الأرض اليومية ، فيكون الشرق غربا والغرب شرقا . أخرج البخارى فى تاريخه وأبو الشيخ فى العظمة وابن عساكر عن كعب الأحبار

قال : «إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب (يريد المحور) فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها» . وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا» وأخرج أحمد والترمذى عن أبى هريرة مرفوعا «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض» .

(قل انتظروا إنا منتظرون) أى قل لهم : انتظروا أيها المعاندون وما تتوقعون إتيانه ووقوعه بنا من اختفاء أمر الإسلام . إنا منتظرون وعد ربنا لنا ووعيده لكم ، ونحو الآية قوله : «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» .

وفى هذا من التهديد والوعيد ما لايخفى ، وهو كقوله : «وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) .

المعنى الجملى

بعد أن وصى سبحانه هذه الأمة على لسان رسوله باتباع صراطه المستقيم ، ونهى عن اتباع غيره من السبل ، ثم ذكر شريعة التوراة المشابهة لشريعة القرآن ووصاياه ، ثم تلا ذلك تذكيره لهم ولسائر المخاطبين بالقرآن بما ينتظر آخر الزمان من الحوادث الكونية للأفراد والأمم .

فى على ذلك بتذكير هذه الأمة بما هى عرضة له على حسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء بالتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التى تجعلها أحزابا وشيعا تتعصب كل منها لمذهب أو إمام ، فيضيع الحق وتنفصم عرا الوحدة ، وتصبح بعد أخوة الإيمان أمما متعادية كما حدث لمن قبلهم من الأمم .

وقد ذهب بعض مفسرى السلف إلى أن الآية نزلت فى أهل الكتاب إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ، وكل منها مذاهب تتعصب لها شيع مختلفة يتعادَون و يتقاتلون فيه ، وذهب بعض آخر إلى أنها نزلت فى أهل البدع والفرق الإسلامية والمذاهب التى استحدثت ففرقت وحدة الأمة .

ولا مانع من الجمع بين الرأيين ، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم وأمر من استجاب لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم ، كما جاء فى سورة آل عمران : « وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ثم بين أن رسوله برىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما فعل أهل الكتاب ، فهو يحذر من صنيعهم ، و ينهى عن سلوك طريقهم ، فمن اتبع سنتهم فى هذا التفريق فالرسول برىء منه ، كما هو برىء من أولئك المفرقين من سالفى الأمم .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد أنزل عليه (إن الذين فرقوا دينهم) الآية .

وأخرج رواة التفسير بالمأثور عن أبى هريرة فى قوله : (إن الذين فرقوا دينهم)الآية قال هم فى هذه الأمة . وأخرج الترمذى وابن أبى حاتم والبيهقى وغيرهم عن عمر بن الخطاب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « يا عائش إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع وأصحاب الأهواء

ليس لهم توبة ، أنا منهم برىء وهم منى برءاء » وليس المراد بنفى التوبة عنهم أنهم لا تقبل لهم توبة إذا ظهر لهم خطؤهم وعرفوا بدعتهم فرجعوا وتابوا إلى ربهم ، بل المراد أنهم لا يتوبون لزعمهم أنهم على الصواب ، وسواهم على الباطل .

والخلاصة — إن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أهل الكتاب ، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم ، ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة فالرسول منه برىء ، إذ ما ورد فى الكتاب والسنة من صفات الكفر وأفعالهم ليس خاصا بهم ، بل إذا اتصف المسلمون بمثل ما اتصفوا به كان حكمهم كحكمهم ، لأن الله لا يبيح للمسلمين البدع والضلالات والتفرق فى الدين لأنهم مسلمون ، فإن ذلك يكون هدما لأسس الدين ، وخروجا من سنن المهتدين .

ولدى التحقيق والبحث نجد أن أسباب التفرق فى هذه الأمة فى دينها وتبعه ضعفها فى دنياها ترجع إلى أمور :

(١) التنازع على الملك ، وقد حدث هذا من بدء الإسلام واستمر حتى وقتنا هذا

(٢) العصبية الجنسية والنُّعَرة القومية فى كل شعب وقبيل ، إذ شمخ كل شعب بأنفه وأبى أن يخضع لغيره اعتقادا منه أنه أرقى الشعوب أرومة ، وأرفعها محتِدا ، فأنّى له أن ينقاد لسواه ؟

(٣) عصبية المذاهب والآراء فى أصول الدين وفروعه ، فأرباب المذاهب من الشيعة ذموا بقية المذاهب الأخرى كالحنفية والشافعية ، ورجال الحديث تكلموا فى أهل القياس .

(٤) القول فى الدين بالرأى ، فإن كثيرا ممن يركن إليهم فى الفتيا واستنباط الأحكام الدينية ضعيف عن حمل السنة والتفقه فى فهم الكتاب ، فإذا عرضت له حادثة ولم يفطن إلى مأخذها من الكتاب أو السنة أفتى فيها بالرأى ، وقد يكون

مصادما للدليل النقلى أو لفتاوى الصحابة والتابعين — إلى أن آراء الناس تختلف باختلاف الزمان والمكان وشئون المعيشة وأحوال الاجتماع ، فأنى تتفق الألوف الكثيرة من الشعوب المختلفة فى الأزمنة المتعاقبة ؟ .

(٥) دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له ووضع كثير من الأحاديث التى نفقت لدى بعض رجال الدين واتخذوها مرجعا فى استنباط بعض الأحكام ، والدين منها بُراء .

(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) أى إن الذين فرقوا دينهم فأقروا ببعض وكفروا ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ، إذ تفرقوا فرقا وكفر بعضهم بعضا ، وأخذوا بعضا وتركوا بعضا كما أخبر بذلك الكتاب الكريم بقوله : « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » .

وقوله: لست منهم فى شىء، أى إنك بعيد من أقوالهم ومذاهبهم،والله يتولى جزاءهم، كما قال : (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) أى إنه تعالى هو الذى يجازيهم على مفارقة دينهم والتفريق له بما اقتضت به سنة الله من ضعف المتفرقين ، وفشل المتنازعين ، وتسليط الأقوياء عليهم ، وإذاقة بعضهم بأس بعض كما بين ذلك سبحانه بقوله : « وَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » أى إنه بعد أن يعذبهم بأيديهم وأيدى أعدائهم فى الدنيا يبعثهم فى الآخرة ، ثم ينبئهم عند الحساب بما كانوا يفعلون فى الدنيا من الاختلاف والتفرق اتباعا للأهواء ثم يجازيهم على ذلك أشد الجزاء فى النار وبئس القرار .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى السورة أصول الإيمان ، وأقام عليها البراهين ، وفند ما يورده الكفار من الشبهات ، ثم ذكر فى الوصايا العشر أصول الفضائل والآداب التى يأمر بها الإسلام وما يقابلها من الرذائل والفواحش التى ينهى عنها .

بين هنا الجزاء العام فى الآخرة على الحسنات وهى الإيمان والأعمال الصالحة ، وعلى السيئات وهى الكفر والفواحش ما ظهر منها وما بطن .

الإيضاح

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أى من جاء ربه يوم القيامة بالخصلة الحسنة من خصال الطاعات التى فعلها وقلبه مطمئن بالإيمان فله عنده عشر حسنات أمثالها من عطائه غير المحدود .

وهذه العشر لا يدخل فيها ما وعد به من المضاعفة لمن يشاء على بعض الأعمال كالنفقة فى سبيله ، إذ قد وعد بالمضاعفة عليها دون قيد فى قوله : « إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » ووعد بمضاعفة كثيرة فى قوله : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً » ووعد بالمضاعفة سبعمائة ضعف فى قوله : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

وفى هذا إشارة إلى تفاوت المنفقين وغيرهم من المحسنين فى الصفات النفسية كالإخلاص فى النية والاحتساب عند الله والإخفاء سترا على المعطَى وتباعدا من الشهرة ، والإبداء لحسن القدوة ، وتحرى المنافع والمصالح ، وما يقابل ذلك من الصفات الرذيلة كالرياء وحب الشهرة الباطلة والمنّ والأذى .

والخلاصة — إن العشرة تعطى لكل من أتى بالحسنة ، والمضاعفة فوقها تختلف على حسب مشيئته تعالى بما يعلم من أحوال المحسنين ، فمن بذل الدرهم ونفسه كئيبة على فقده ، لا تكون حاله كمن يبذله طيبة به نفسه ، مسرورة بتوفيق الله على عمل الخير ونيل ثواب الآخرة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) أى ومن جاء بالخصلة السيئة وعليها طابع الكفر تكتنفها الفواحش والمنكرات ، فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها على حسب سننه تعالى فى تأثير الأعمال السيئة فى إفساد النفس وتدسيتها .

(وهم لايظلمون) الظلم النقص من الشيء كما جاء فى قوله تعالى : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا » أى إن كلا الفريقين فاعلى الحسنات والسيئات لايظلم يوم الجزاء ، لامن الله ؛ لأنه منزه عن الظلم عقلا ونقلا فقد روى مسلم من حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا » الحديث ، ولا من غيره إذ لا سلطان لأحد من خلقه ولا كسب فى ذلك اليوم يمكنه من الظلم كما يفعل الأقوياء الأشرار فى الدنيا بالضعفاء ، وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال: «إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هوهمّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هوهمّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » .

والمراد من كتابة الله لها أمره الملائكة بكتابتها كما ورد فى حديث أبى هريرة مرفوعا قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ،

و إن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » وفى هذا الحديث بيان للسبب فى كتابة السيئة حسنة ، وأن ذلك إنما كان لمخالفة النفس بكفها عن عمل السيئة من أجل ابتغاء رضوان الله واتقاء سخطه وعذابه .

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) .

شرح المفردات

قيماً ، أى يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم ، حنيفا أى مائلا عن الأديان الباطلة ، والنسك العبادة ، ومحياى ومماتى لله :أى وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كله لله رب العالمين ، الوزر لغة الحمل الثقيل ،ووزره يزره حمله يحمله ، والخلائف واحدهم خليفة ،وهو من يخلف من كان قبله فى مكان أو عمل أو ملك ، والابتلاء الاختبار والامتحان .

المعنى الجملى

لما كانت هذه السورة أجمع السور لأصول الدين مع إقامة الحجج عليها ودفع الشبه عنها ، و إبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم ـ جاءت هذه الخاتمة آمرة له صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم قولا جامعا لجملة ما فصل فيها ـ وهو أن الدين القيم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم دون مايدعيه المشركون وأهل الكتاب المحرِّفون ، وأنه صلى الله عليه وسلم مستمسك به معتصم بحبله يدعو إليه قولا وعملا على أكمل الوجوه ، وهو أول المخلصين وأخشع الخاشعين ، وهو الذى أكمل هذا الدين بعد انحراف جميع الأمم عن صراطه .

ثم بين أن الجزاء عند الله على الأعمال ، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن المرجع إليه تعالى وحده ، وأن له سننا فى استخلاف الأمم واختبارها بالنعم والنقم ، وأن الله وحده هو الذى يتولى عقاب المسيئين ورحمة المحسنين ، فلا ينبغى الاتكال على الوسطاء ولا الشفعاء بين الله والناس فى غفران الذنوب وقضاء الحاجات كما هى عقيدة أهل الشرك أجمعين .

الإيضاح

(قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم) أى قل أيها الرسول لقومك ولسائر البشر : إن ربى أرشدنى بما أوحاه إلىّ بفضله ، إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اشتباه ، يهدى سالكه إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الذى أدعوكم إلى طلبه منه تعالى حين تناجونه فتقولون : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » .

(دينا قيما) أى إن هذا الصراط المستقيم هو الدين الذى به يقوم أمر الناس فى معاشهم ومعادهم و به يصلحون .

(ملة إبراهيم حنيفا) أى الزموا ملة إبراهيم حال كونه حنيفا مائلا عن جميع ما سواه من الشرك والباطل .

(وما كان من المشركين) أى إنه منزه عن الشرك وما عليه المبطلون ، وفيه تكذيب لأهل مكة القائلين إنهم على ملة إبراهيم وهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولليهود الذين يقولون: عزير ابن الله ، وللنصارى الذين يقولون :عيسى ابن الله ، وهذا كقوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » .

هذا الدين هو دين الإخلاص لله وحده ، وهو الدين الذى بعث به جميع رسله وقرره فى جميع كتبه ، وجعله ملة إبراهيم لأنه هو النبى الذى أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه مشركو العرب وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكانت قريش ومن لفّ لِفّها من العرب يسمون أنفسهم الحنفاء مدعين أنهم على ملة إبراهيم وهكذا فعل أهل الكتاب حين ادعوا اتباعه واتباع موسى وعيسى عليهما السلام كما قال : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) المراد بالصلاة ما يشمل المفروض منها والمستحب ، والنسك : العبادة ، والناسك : العابد ، وكثر استعماله فى عبادة الحج ، والمراد من كون محياه ومماته لله أنه قد وجه وجهه وحصر نيته وعزمه فى حبس حياته لطاعته ومرضاته و بذلها فى سبيله ، فيموت على ذلك كما يعيش .

والآية جامعة لكل الأعمال الصالحة التى هى غرض المؤمن الموحد من حياته وذخيرته لمماته ، و يكون فيها الإخلاص لله رب العالمين .

فينبغى للمؤمن أن يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله ، فيتحرى الخير والصلاح والإصلاح فى كل عمل من أعماله ، و يطلب الكمال فى ذلك لنفسه رجاء أن يموت ميتة ترضى ربه ، ولا يحرص على الحياة لذاتها ، فلا يرهب الموت ، فيمتنع عن الجهاد فى سبيل الله ، كما أن عليه أن يقيم ميزان العدل فيأخذ على أيدى أهل الجور و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر .

وأفرد الصلاة بالذكر مع دخولها فى النسك ، لأن روحها وهو الدعاء وتعظيم المعبود وتوجه القلب إليه والخوف منه ، مما يقع فيه الشرك ممن يغلون فى تعظيم الصالحين وما يذكّر بهم كقبورهم وصورهم وتماثيلهم .

والخلاصة — إنه لا ينبغى أن تكون العبادة إلا لله رب العباد وخالقهم ، فمن توجه إليه وإلى غيره من عباده المكرمين أو إلى غيرهم مما يستعظم من خلقه كان مشركا ، فالله لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .

(لا شريك له وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين) أى لا شريك له فى ربوبيته فيستحق أن يَشْرَكه فى العبادة ويتوجه إليـه معه للتأثير فى عبادته ، وبذلك أمرنى ربى ، وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

وفى هذا بيان إجمالى لتوحيد الألوهية بالعمل بعد بيان أصل التوحيد فى العقيدة ثم انتقل إلى برهانه الأعلى ، وهو توحيد الربوبية بما أمره به فقال :

(قل أغير الله أبغى ربًا وهو رب كل شىء) أى أغير الله الذى خلق الخلق ورباهم ـ أطلب ربا آخر أشركه فى عبادتى له بدعائه والتوجه إليه ، لينفعنى أو يمنع الضر عنى أو ليقربنى إليه زلفى ، وهو تعالى رب كل شىء مما عبد ومما لم يعبد ، فهو الذى خلق الملائكة والمسيح والشمس والقمر والكواكب والأصنام كما قال : « وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

وإذا كان الله هو الخالق والمدبر فكيف أسفّه نفسى وأكفر بربى بجعل المخلوق المربوب مثلى ربًّا لى ، وجميع المشركين يعترفون بأن معبوداتهم مخلوقة لله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين .

(ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تكسب كل نفس إثما إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب كما قال : « لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » أى دون ما كسب أو اكتسب غيرها .

والخلاصة — إن الدين أرشدنا أن نجرى على ما أودعته الفطرة فى النفوس من أن سعادة الناس وشقاءهم فى الدنيا بأعمالهم ، والعمل يؤثر فى النفس التأثير الذى يزكيها إن كان صالحا ، أو التأثير الذى يدسيها و يفسدها إن كان سيئا والجزاء مبنى على هذا التأثير ، فلا ينتفع أحد ولا يتضرر بعمل غيره .

ومن كان قدوة صالحة فى عمل أو معلما له فإنه ينتفع بعمل من أرشدهم بقوله أو فعله زيادة على انتفاعه بأصل ذلك القول أو الفعل ، ومن كان قدوة سيئة فى عمل أو دالاً عليه ومغريا به ، فإن عليه مثل إثم من فعله ، وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم هذا بقوله : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » رواه مسلم .

وهذه قاعدة من أصول كل دين بعث الله به رسله كما جاء فى سورة النجم : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ، أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح فى المجتمع البشرى ، وهادمة لأسس الوثنية ، وهادية للناس جميعا إلى ما تتوقف عليه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، فإن العمل وحده هو وسيلة الفوز وطريق النجاة ، لا كما يزعم الوثنيون من طلب رفع الضر وجلب النفع بقوة من وراء الغيب ، وهى وساطة بعض المخلوقات الممتازة ببعض الخواص والمزايا بين الناس وربهم ، ليعطيهم ما يطلبون فى الدنيا بلا كسب ولا سعى من طريق الأسباب التى جرت بها سنته فى خلقه ، وليحملوا عنهم أوزارهم حتى لا يعاقبوا بها ، أو ليحملوا الخالق على رفعها عنهم وترك عقابهم عليها ، وعلى إعطائهم نعيم الآخرة و إنقاذهم من عذابها .

ومما ينتفع به المرء من عمل غيره ــ لأنه فى الحقيقة كأنه عمله إذ كان سببا فيه ــ دعاء أولاده ، وحجهم وتصدقهم عنه ، وقضاؤهم لصومه كما ورد فى الحديث :

« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة .

ذاك أن الله قد ألحق ذرية المؤمنين بهم بنص الكتاب ، وصح فى السنة أن ولد الرجل من كسبه :

ومن هذا تعلم أن ما جرت به العادة من قراءة القرآن والأذكار وإهداء ثوابها إلى الأموات واستئجار القراء وحبس الأوقاف على ذلك — بدعة غير مشروعة ، وكذا إسقاط الصلاة ، إذ لو كان لذلك أصل فى الدين لما جهله السلف ، ولو علموه لما أهملوا العمل به .

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى ثم إن رجوعكم فى الحياة الآخرة إلى ربكم دون غيره مما عبدتم من دونه ، فينبئكم بما كنتم تختلفون فيه من أمر أديانكم المختلفة ، ويتولى جزاءكم عليه وحده على حسب علمه وإرادته القديمين ، ويضل عنكم ما كنتم تزعمون من دونه .

ونحو الآية قوله : « إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » .

(وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) أى إن ربكم الذى هو رب كل شىء هو الذى جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم قد سبقت ، وفى سيرها عبر وعظات لمن ادّكر وتدبر ، وكذلك هو قد رفع بعضكم فوق بعض درجات فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، ليختبركم فيما أعطاكم أى ليعاملكم معاملة المختبر لكم فى ذلك ، ويبنى الجزاء على العمل ، إذ قد جرت سنته فى أن سعادة الناس أفرادا وجماعات فى الدنيا والآخرة أو شقاءهم فيهما تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم .

وجاء فى معنى الآية قوله : «وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»

وقوله : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »
وقوله : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ».

(إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) أي إنه تعالى سريع العقاب لمن كفر به أو كفر بنبيّه وخالف شرعه وتنكب عن سنته ، وهذا العقب السريع شامل لما يكون فى الدنيا من الضرر فى النفس أو العقل أو العرض أو المال أو غير ذلك من الشئون الاجتماعية ، وهذا مطرد فى الدنيا فى ذنوب الأمم ، وأكثرىّ فى ذنوب الأفراد ، ومطرد فى الآخرة بتدسية النفس وتدنيسها .

وهو سبحانه على سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين ، غفور للتوابين رحيم بالمؤمنين المحسنين ، إذ سبقت رحمتُه غضبَه ، ووسعت كل شىء ، ومن ثم جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها ، وقد يضاعفها بعد ذلك أضعافا كثيرة لمن يشاء ، كما جعل جزاء السيئة سيئة مثلها ، وقد يغفرها لمن تاب منها كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

نسأله تعالى أن يغفر لنا خطيئاتنا ويستر زلاتنا بمنه وكرمه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة من العقائد والأحكام

(١) العقائد وأدلتها بالأسلوب الجامع بين الإقناع والتأثير كبيان صفات الله بذكر أفعاله وسننه فى الخلق وآياته فى الأنفس والآفاق ، وتأثير العقائد فى الأعمال ، مع إيراد الحقائق بطريق المناظرة والجدل ، أو ورودها جوابا بعد سؤال ، وفى أثناء ذلك يرد شبهات المشركين ويهدم هيا كل الشرك ويقوض أركانه .

(٢) الرسالة والوحى وتفنيد شبهات المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم وإلزامهم الحجة بآية الله الكبرى ، وهى القرآن المشتمل على الأدلة العقلية والبراهين

العلمية ، وقد كان كثير من الكفار مشركين وغير مشركين يكفرون بالرسل ويستبعدون إنزال الوحى عليهم .

(٣) البعث والجزاء والوعد والوعيد بذكر ما يقع يوم القيامة من العذاب للمجرمين ، والبشارة للمتقين بالفوز والنعيم ، مع ذكر عالَم الغيب من الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار ، وقد كانت العرب كغيرها من الأمم تؤمن بالملائكة وبوجود الجن ويعتقدون بأنهم يظهرون لهم أحيانا بصورة الغيلان ويسمعون أصواتهم وعزفهم ، وأنهم يلقون الشعر فى هواجس الشعراء .

(٤) أصول الدين ووصاياه الجامعة فى الفضائل والآداب والنهى عن الرذائل ، وإذا نحن فصلنا القول فيها نرجعها إلى الأصول الآتية :

(ا) إن دين الله واحد ، فتفريقه بالمذاهب والأهواء وجعل أهله فرقا وشيعا خروج عن هدى الرسول الذى جاء به وموجب لبراءته من فاعليه .

(ب) إن سعادة الناس وشقاوتهم منوطتان بأعمالهم النفسية والبدنية ، وأن الجزاء على الأعمال يكون على حسب تأثيرها فى الأنفس ، وأن الجزاء على السيئة بمثلها ، وعلى الحسنة بعشر أمثالها فضلا من الله ونعمة ، وجزاء السيئات على الإنسان وحده ، وجزاء الحسنات له وحده ، فلا يحمل أحد وزر غيره .

(حـ) إن الناس عاملون بالإرادة والاختيار ، ولكنهم خاضعون للسنن والأقدار ، فلا جبر ولا اضطرار ، ولا تعارض بين عملهم باختيارهم ومشيئة الخالق سبحانه ، إذ المراد من خلقه الأشياء بقدر وتقدير أنه تعالى خلقها على وجه جعل فيه المسببات على قدر الأسباب بناء على علم وحكمة ، فهو لم يخلق شيئا جزافا بغير تقدير ولا نظام يجرى عليه .

(د) إن لله سننا فى حياة الأمم وموتها ، وسعادتها وشقائها ، وإهلاكها بمعاندة الرسل والظلم والفساد فى الأرض ، وتربيتها بالنعم تارة والنقم أخرى .

(هـ) إن التحليل والتحريم وسائر الشعائر التعبدية من حق الله تعالى ، فمن وضع حكما لا يستند إلى شرع الله فقد افترى إثما عظيما .

(و) الأمر بالسير فى الأرض ، وقد تكرر ذلك فى الكتاب الكريم للنظر فى أحوال الأمم وعواقب الأقوام التى كذبت الرسل .

(ز) الترغيب فى معرفة ما فى الكون والإرشاد إلى معرفة سنن الله فيه ، وآياته الكثيرة الدالة على علمه وقدرته .

(ح) إن التوبة الصحيحة مع ما يلزمها من العمل الصالح موجبة لمغفرة الذنوب .

(ط) ابتلاء الناس بعضهم ببعض ، ليتنافسوا فى العلوم والأعمال النافعة ، وإعلاء كلمة الحق والدين ورفعة شأنه وإعزاز أهله .

سورة الأعراف

عدد آيها خمس ومائتان ، وهى مكية، وقد روى أنها نزلت قبل سورة الأنعام ، وأنها نزلت مثلها دفعة واحدة، لكن سورة الأنعام أجمع لما اشتركت فيه السورتان، وهو : أصول العقائد وكليات الدين التى قدمنا القول فيها ، وهى كالشرح والبيان لما أوجز فى الأنعام ، ولا سيما عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وقصص الرسل قبله وأحوال أقوامهم ، وقد اشتملت سورة الأنعام على بيان الخلق كما قال : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » و بيان القرون كما قال : « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » وعلى ذكر المرسلين وتعداد الكثير منهم ، وجاءت هذه مفصلة لذلك ، فبسطت فيها قصة آدم ، وفصلت قصص المرسلين وأممهم وكيفية هلاكهم أكمل تفصيل .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) .

شرح المفردات

(الٓمٓصٓ) هذه حروف تكتب بصورة كلمة من ذوات الأربعة الأحرف ، لكنا نقرؤها بأسماء هذه الأحرف فنقول : ألف . لام . ميم . صاد .

وحكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء الحروف التى ليس لها معنى مفهوم غير مسماها الذى تدل عليه — تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شىء . فكأنه أداة استفتاح بمنزلة ألا وها التنبيه .

وبالاستقراء نرى أن السور التى بدئت بها وبذكر الكتاب ، هى التى نزلت بمكة لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحى ، وما نزل منها بالمدينة كالزهراوين البقرة وآل عمران فالدعوة فيه موجهة إلى أهل الكتاب ، وهكذا الحال فى السور: مريم والعنكبوت والروم وص ون ، فإن مافيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة فى الدين بإيذاء الضعفاء لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة ، والإنباء بقصص فارس والروم ونصر الله للمؤمنين على المشركين ، وكان هذا من أظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور ، والأسماء المرتجلة لا تعلل ، كما يرى آخرون أن الحكمة فى ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من هذه الأحرف المفردة التى يتألف منها الكلام العربى ومع ذلك لايستطيعون أن يأتوا بمثله ، ليؤديهم النظر إلى أنه ليس من كلام البشر ، بل من كلام خالق القوى والقدر ؛ والحرج : الضيق، من عاقبة المخالفة ، والذكرى : التذكر النافع والموعظة المؤثرة ، وولاية الله لعباده : تولى أمورهم فيما لايصل إليه كسبهم من هدايتهم ونصرهم على أعدائهم ، وشرعه لهم عبادته وبيان الحرام والحلال ، و (ما) فى قوله قليلا ما ــ حرف يؤكد معنى القلة ، وتذكرون : أصله تتذكرون حذفت منه إحدى التاءين .

الإيضاح

(كتاب أنزل إليك) أى هذا القرآن كتاب أنزل إليك من عند ربك ، ووصفه بالإنزال من عند الله ــ دال على عظيم قدره وقدر من أنزل إليه .

(فلا يكن فى صدرك حرج منه) أى لايضق صدرك من الإنذار به وإبلاغه من أمرت بإبلاغه إليهم ، واصبر لأمرى فيما حملتك من عبء النبوة كما صبر أولو العزم من الرسل فإن الله معك .

فقد كلف صلى الله عليه وسلم هداية الثقلين وكان من المتوقع أن يلقى أشد الإيذاء

والمقاومة والطعن والإعراض، وتلك أمور توجب ضيق الصدر كما قال فى سورة الحجر: « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ » وقال فى سورة النحل : « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقال فى سورة هود : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ويراد بالنهى عن مثل هذا الأمر الطبيعى — الاجتهاد فى مقاومته والتسلى عنه بوعد الله ، والتأسى بمن سبقه من الرسل أولى العزم صلوات الله عليهم أجمعين .

(لتنذر به وذكرى للمؤمنين) والمراد بالمؤمنين هنا من كتب الله لهم الإيمان ، سواء أكانوا مؤمنين حين نزول هذه السورة أم لا .

والخلاصة — إنه أنزل إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس ، وتذكر به أهل الإيمان ذكرى نافعة مؤثرة .

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى قل لهم أيها الرسول : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم وخالقكم ومدبر أموركم ، فهو وحده الذى له الحق فى شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم ، وتحليل ما ينفعكم وتحريم ما يضركم ، إذ هو العليم بما فيه الفائدة أو الضر لكم .

(ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى ولا تتخذوا من أنفسكم ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم — أولياء تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يرومون منكم من ضلال التقاليد والابتداع فى الدين ، فيضعوا لكم أحكام الحرام والحلال زاعمين أنهم أعلم منكم ، فيجب عليكم تقليدهم ، ولا أولياء ينجونكم من الجزاء على ذنوبكم وجلب النفع لكم أو رفع الضر عنكم ، زاعمين أنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، أو يشفعون لكم عنده فى الآخرة .

والخلاصة — إن الله وحده هو الذى يتولى أمر العباد بالتدبير والخلق والتشريع، وله وحده الخلق والأمر وبيده النفع والضر .

(قليلا ما تذكرون) أى إنكم تتذكرون قليلا لا كثيرا ما يجب أن يعلم الرب سبحانه ، وما يحظر أن يشرك معه فيه غيره ، وقد يكون المراد — قليلا ما تتعظون بما توعظون به ، فترجعون عن تقاليدكم وأهوائكم إلى ما أنزل إليكم من ربكم .

وفى هذا إيماء إلى النهى عن طاعة الخلق فى أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه كما فعل أهل الكتاب فى طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحى من العبادات ، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء فى قوله : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » فكل من أطاع أحدا فى حكم شرعى لم ينزله الله فقد اتخذه ربا .

واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من بيان الدين — داخل فى عموم ما أنزل إلينا على رسوله ، لأنه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته وأخبرنا أنه مبين لما نزل إليه كما قال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . وقد صح فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، و إذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» رواه مسلم عن رافع بن خديج فى مسألة تأبير النخل (تلقيح النخلة بطلع الذكر) .

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) .

شرح المفردات

(كم) اسم يفيد التكثير ، والقرية : تطلق على الموضع الذى يجتمع فيه الناس وعلى الناس معا ، وتطلق على كل منهما كما جاء فى قوله : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » أى

أهل القرية ، والقرية هنا تصلح لأن يراد بها القوم أنفسهم ، وأن يراد بها المكان ، لأنه يهلك كما يهلك أهله ، والبيات : الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة ، والبأس : العذاب ، والقائلون : هم الذين ينامون استراحة وسط النهار أى حين القائلة يقال : قال يقيل قيلا وقيلولة ، والدعوى ما يدعيه الإنسان ، وتطلق على القول أيضا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل الكتاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويكون موعظة وذكرى لأهل الإيمان ، وأنه طلب إليه أن يأمر الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم وألا يتبعوا من دونه أحدا يتولونه فى أمر التشريع أردف هذا بالتخويف من عاقبة المخالفة لذلك ولما يتبعه من أصول الدين وفروعه ، والتذكير بما حل بالأمم قبلهم بسبب إعراضهم عن الدين وإصرارهم على أباطيل أوليائهم .

الإيضاح

(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) أى وكثير من القرى أهلكناها لعصيانها رسلها فيما جاءوها به من عند ربها ، وكان هلاكها إما حين البيات ليلا كقوم لوط ، وإما حين القائلة وهم آمنون نهارا كقوم شعيب ، وكلا الوقتين وقت دعة واستراحة لم تكن تنتظر فيه كل منهما هلاكا ولا عذابا ، فلا يجمل بالعاقل أن يأمن غدر الليالى ولا خدع الأيام ولا يغتر بالرخاء فيعده علامة على أنه مستحق له فهو مظنة الدوام .

وفى ذلك تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزهم وعصبيتهم ، وأن ذلك من دلائل رضا الله عنهم كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

(فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم العذاب إلا أن اعترفوا بظلمهم فيما كانوا عليه ، وشهدوا ببطلانه ، تحسرا وندامة وطمعا فى الخلاص ، ولكن أنى ينفع الندم ، وقد أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ؟ .

وفى الآية من العبرة — أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنب فعله فى الدنيا ، يعترف بجرمه و يندم على ما فرط منه إذا هو علم أنه سبب العقاب ، وقلما يشعر المرء بعقاب فى الدنيا على الذنوب ، لأنه يأتى على التراخى غالبا فالأمراض التى تتولد من شرب الخمر كأمراض القلب والكبد والجهاز التناسلى وضعف النسل واستعداده للأمراض إلى نحو ذلك من الأمراض الجسدية والعقلية تحصل ببطء ، وقلما يعرفها غير الأطباء ؛ ومن ثم لا يشعر بها السكارى و إنما يشعرون بما يعقب الشرب من صداع وغثيان يسهل عليهم احتماله وترجيح لذة النشوة عليه .

إلى أنه لو علمها بعدُ فقلما يفيد علمه بها شيئا بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة فى السكور حتى تحمله على التوبة، إذ داء الخمار مزمن . وحب السكر يضعف الإرادة .

وعقاب الأفراد على الذنوب فى الدنيا لايطرد ، كما يطرد فى الأمم ، فعقابها فى الدنيا على ما تجترح — حتم لا شبهة فيه ؛ ولكن له آجال ومواقيت أطول مما يكون فى الأفراد ، ويختلف باختلاف أحوال الأمة فى القوة والضعف ، فأمة نشأ فيها الظلم والطغيان وعدمت الثقة بين أفرادها واختل نظام الأمن فيها وكثر فيها الفسق والفجور — تسوء حالها وتنحل قواها وتتفكك روابط الألفة والمودة بين أفرادها وتضعف منعتها ، فتحسب أهلها جميعا وقلوبهم شتى ، ولا يزال أمرها يأخذ فى التدهور والفساد حتى يستولى عليها العدو القاهر ويمتص ثروتها ويجعل أهلها أذلة مستضعفين ، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع العقوبة ، كما لايجديها نفعا أن يقول حكاؤها : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . وربما عمها الجهل ، وران على قلوبها الفساد فلا تشعر بأن ما حل بها إنما كان جزاء وفاقا ، ونكالا من الله على ما قدمت

من عمل ، واقترفت من إثم ، فترضى باستذلال الغاصب كما رضيت من قبل بما اجترحت من الآثام والذنوب ، وقد يكون ذلك سبيلا لانقراضها بما يعقبه الفسق والفجور من قلة النسل ، ولا سيما إذا فشا الزنا والسكر ، أو تبقى فيها بقية تدّغم فى الكثرة الغالبة ، فلا تعد أمة على سبيل الاستقلال ، وربما توالت عليها المصايب والآثام حتى تضيق بها ذرعا فتطلب لها مخرجا وترجع إلى الوراء لتبحث عن أسبابها فلا تجدها إلا فى أنفسها كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » .

وإذا أرادت لها علاجا وتمنت لها دواء من دائها الدوى وتلفتت يمنة ويسرة سرا وعلانية لم تجده إلا ما وصفه الكتاب الكريم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » وان يكون ذلك إلا بالإقلاع عما ترتكب من الجرائم والتوبة الصادقة والعمل الطيب الذى به تصلح القلوب وتستقيم الأمور ، وهاكم ما قاله العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم حين توسل به عمر والصحابة بتقديمه لصلاة الاستسقاء لما انقطع الغيث وعم الجدب : اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة .

وفى هذا عبرة أيما عبرة للشعوب الإسلامية التى ثلت عروشها ، وخوت صروح عظمتها ، وقد كانت أجدر بهدى القرآن ، ولكن أنى لها بذلك ، وقد هجره الخاصة وتبعهم العامة ، إذ جهلوا أحكامه وحكمه ، حتى لقد بلغ الأمر بنابتتها ، ألا ترى سببا لركود ريحها إلا اتباع القرآن والعمل بهذا الدين : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

فأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩).

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه الرسل فى الآية السالفة بالتبليغ وأمر الأمم بالقبول والمتابعة، وذكرهم بعذاب الأمم التى عاندت الرسل فى الدنيا — قفى على ذلك بذكر العذاب الآجل يوم القيامة، وأنه فى ذلك اليوم يسأل كل إنسان عن عمله .

الإيضاح

(فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) الذين أرسل إليهم : هم جميع الأمم الذين بلغتهم دعوة الرسل ، فيسأل تعالى كل فرد منهم فى الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته ، ويسأل المرسلين عن تبليغهم وإجابة أقوامهم لهم وعما عملوا من إيمان وكفر ، وقد فصل هذا الإجمال فى آيات أخرى كقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ » وقوله : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ » وقوله فى سورة الحجر : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قال ابن عباس : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلغوه ، والمراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم .

ولا مخالفة بين هذه الآية التى تثبت السؤال العام و بين قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » لأن ليوم القيامة مواقف متعددة ، والسؤال والجواب والاعتذار يكون فى بعضها دون بعض .

وقال الرازى : إنهم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب قد أحصتها ، لكنهم يسألون عن الدواعى التى دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التى صرفتهم عنها اهـ.
يريد أنهم يسألون عن الموانع التى حالت بينهم وبين عمل ما طلب منهم عمله ، أو فعل ما طلب إليهم تركه .

(فلنقصنّ عليهم بعلم) القص تتبع الأثر إما بالعمل كما فى قوله حكاية عن أم موسى « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » وإما بالقول كما فى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » .

أى فلنقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم كل ما وقع من الفريقين قصصا بعلم منا محيط بكل ما كان منهم ، فلا يعزب عنا مثقال ذرة ، وقد روى عن ابن عباس أنه يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

(وما كنا غائبين) عنهم فى وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال ، بل كنا معهم نسمع ما يقولون ونبصر ما يعملون ، ونحيط علما بما يسرون وما يعلنون ، كما قال تعالى : « وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ . وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

وفى هذا إيماء إلى أن السؤال لم يكن للاستعلام والاستبانة لشىء مجهول عنه تعالى ، بل للإعلام والإخبار بما حدث منهم توبيخا لهم وتأنيبا على إهمالهم .

وهذا القصص هو الذى يكون به الحساب ويتلوه الجزاء ، وقد دل عليه الكتاب الكريم فى مواضع عدة ، ودلت عليه السنة ؛ فمن ذلك ما رواه ابن عمر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع يسأل عن الناس ، والرجل راع يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » وما رواه المقدام قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة ، بين يديه راية

يحملها وهم يتبعونه ، فيسأل عنهم ويسألون عنه » وما رواه الترمذى عن أبى بَرْزَة الأسلمى مرفوعا : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه ؟ » وروى الحاكم وابن ماجه حديث شدّاد بن أوس مرفوعا : « الكيّس من دان – حاسب – نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

(والوزن يومئذ الحق) الوزن عمل يراد به تعرّف مقدار الشىء بالميزان والقسطاس ، وقد يطلق كل من الميزان والقسطاس على العدل كقوله : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » وقوله فى الرسل : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

أى والوزن فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والأمم ، ويقص عليهم كل ما كان منهم – هو الحق أى الذى نعرف به حقائق الأمور وما يستحقه كل أحد من ثواب وعقاب .

(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والحائزون للنعيم فى دار الثواب .

(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة ما اجترح من السيئات ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، إذ حرموها السعادة التى كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصى وإصرارهم على ذلك إلى نهاية أعمارهم .

والخلاصة — إن المؤمنين على تفاوت درجاتهم فى الأعمال هم المفلحون ، فمن مات مؤمنا فهو مفلح وإن عذب على بعض ذنوبه بمقدارها ، وإن الكافرين على تفاوت دركاتهم هم فى خسران عظيم .

وهناك فريق ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أصحاب الأعراف وسيأتى ذكرهم بعد .

وقد اختلف العلماء فى الوزن والموازين ، هل المراد بها ظهور العدل التام فى نقدير الجزاء على الأعمال التى تصلح الأنفس وتزكيها أو تفسدها وتدسيها ؛ بذلك قال مجاهد والضحاك والأعمش ، أو أن هناك وزنا حقيقيا حكمته إظهار علم الله تعالى بأعمال عباده وعدله فى جزائهم عليها ، وبهذا قال الجمهور ، قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال .

وقال القرطبي : التى توزن هى الصحائف التى تكتب فيها الأعمال .

والحق أن التى توزن هى الأعمال ، فقد أخرج أبو داود والترمذى عن جابر مرفوعا : « توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار ، قيل ومن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف » .

والذى عليه المعول فى الإيمان بعالم الغيب : أن كل ما ثبت من أخباره فى الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه ، فنؤمن به ولا نحكم رأينا فى كيفيته ، فنؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال بميزان يليق بعالم الآخرة توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق ، ولا نبحث عن صورته وكيفيته .

وإذا كان العلم الحديث كشف موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شىء عن وضع موازين للأعمال النفسية والبدنية التى سماها الدين الحسنات والسيئات ، بما تحدثه فى الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها ؟

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) .

شرح المفردات

مكناكم فى الأرض، أى جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوءونها وتتمكنون من الإقامة بها ، والمعايش واحدها معيشة: وهى ما تكون به العيشة والحياة الجسمانية الحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرها ، وهى ضربان :

(١) ما يحصل بخلق الله ابتداء كالثمار وغيرها .

(٢) ما يحدث بالاكتساب .

وكلاهما إنما يحصل بفضل الله و إقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاما من الله ، وذلك مما يوجب طاعته .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أن واضع الدين هو الله فيجب اتباعه دون ما يأمر به غيره من الأولياء والشفعاء ، وقفى على ذلك بذكر عذاب الدنيا بقوله : وكم من قرية أهلكناها ، وذكر عذاب الآخرة بقوله : فلنسألن الذين أرسل إليهم ، وبقوله : والوزن يومئذ الحق .

أردف ذلك بذكر نعمه على عباده بتمكينهم فى الأرض وخلق أنواع المعايش فيها ، مع بيان أن كثرة النعم توجب عليهم الطاعة .

الإيضاح

(ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش) أى ولقد جعلنا لكم فيها أوطانا تتبوءونها وتستقرون فيها ، وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب ، نعمة منى عليكم ، و إحسانا منى إليكم ، وأنشأنا لكم فيها ضروبا شتى من المنافع التى تعيشون بها عيشة راضية : من نبات وأنعام وطير وسمك ومياه عذبة وأشربة مختلفة الطعوم والروائح ، ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال من

جهة إلى أخرى تتقدم بتقدم العلم والاختراع من طيارات وسيارات وقطر برية وسفن بحرية ، وسبل متعددة لمداواة المرضى بالعقاقير المختلفة على يد نطس الأطباء إلى نحو ذلك .

وكل ذلك يقتضى منكم الشكر الكثير ، ولكن الشكر من العباد قليل كما قال : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » ومن ثم عقب هذا بقوله :

(قليلا ما تشكرون) أى وأنتم قليلو الشكر على هذه النعم التى أنعمت بها عليكم ، لا كثيروه كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها ، فقد عبدتم سواى واتخذتم الأولياء والشفعاء من دونى .

وشكر النعمة يكون بمعرفة المنعم بها ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل ، ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه ، وتحقيق الأغراض التى أسداها لأجلها .

فهذه النعم المعيشية ما خلقت إلا لحفظ الحياة الجسمانية للأفراد والجماعات ، والاستعانة بذلك على حفظ الحياة الروحية التى بها تزكو الأنفس ، وتستعد للحياة الأخرى الأبدية التى فيها النعيم المقيم والسعادة المستقرة إلى غير نهاية .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شاكرين (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) .

شرح المفردات

الخلق: التقدير، يقال خلق الخياط الثوب: أى قدره قبل قطعه، وخلق الله الخلق: أوجدهم على تقدير أوجبته الحكمة، والهبوط: الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه أو من منزلة إلى ما دونها، فهو إما حسى وإما معنوى، والتكبر: جعل الإنسان نفسه أكبر مما هى عليه، والصغار الذلة والهوان، وأنظره: أخره، والإغواء الإيقاع فى الغواية: وهى ضد الرشاد، وذأم الشيء: عابه، ودحر الجند العدو، طرده وأبعده .

المعنى الجملى

بعد أن ذكَّر سبحانه عباده فى الآية السابقة بنعمه عليهم بالتمكين فى الأرض وخلق أنواع المعايش فيها — قفى على ذلك ببيان خلق النوع الإنسانى مستعدا للكمال وأنه قد تعرض له وسوسة من الشيطان تحول بينه وبين هذا الكمال الذى يبتغيه .

الإيضاح

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) الخطاب لبنى آدم أى ولقد خلقنا مادة هذا النوع من الصلصال والحمأ المسنون أى من الماء والطين اللازب ، فمنه خلق الإنسان الأول ، ثم جعلنا من تلك المادة صورة بشر سوىّ قابل للحياة .

وقد يكون المعنى – إنا قدرنا إيجادكم تقديرا ثم صورنا مادتكم تصويرا ، وذلك شامل لخلق آدم وخلق مجموع الناس ، إذ أن كل فرد يقدر الله خلقه ثم يصور المادة التى يخلقه منها فى بطن أمه .

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أى وبعد أن سويناه ونفخنا فيه من روحنا

وصار مستعدا لأن يكون خليفة فى الأرض ، وعلمناه الأسماء كلها ، قلنا لجماعة الملائكة اسجدوا لآدم .

(فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) أى فسجد الملائكة جميعا إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ، وهو من الجن لا منهم .

وهذا السجود سجود تكريم وتعظيم من الله لآدم لا سجود عبادة ، فقد قامت الدلائل القاطعة على أنه لا معبود إلا الله وحده .

(قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) لا هنا مزيدة للتأكيد بدليل قوله فى آية أخرى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ) أى قال له تعالى : ما منعك من امتثال أمرى ، فرفضت أن تسجد لآدم مع الساجدين .

وقد تكون (لا) غير زائدة والمنع بمعنى الحمل والاضطرار، وعليه فالمعنى ــ ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد .

وخلاصة ذلك — أى شىء عرض لك فحملك على ألا تكون مع الملائكة فى امتثال أمرى بالسجود ؟ .

ثم ذكر سببا يبرر به امتناعه عن السجود .

(قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) أى إن الذى حملنى على ذلك أنى خير منه ؛ إذ أنك خلقتنى من النار وخلقته من الطين ، والنار خير من الطين وأشرف ، والشريف لا يعظِّم مَن دونه ولو أمره بذلك ربه .

ولا شك أن فى هذا ضروبا من الجهالة وأنواعا من الفسوق والعصيان تتجلى لك فيما يلى :

(أ) اعتراضه على مولاه وخالقه بما تضمنه جوابه .

(ب) احتجاجه عليه بما يؤيد به اعتراضه ، والمؤمن المذعن لأمر ربه يعلم أن لله الحجة البالغة والحكمة الكاملة فيما يفعل ويأمر وينهى .

(ح) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه له وموافقته لهواه ، وهذا

رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية ، والمرءوس فى الدنيا إذا لم يطع أمر الرئيس إلا فيما يوافق هواه ، صار الأمر فوضى والعاقبة وخيمة فلا يصلح عمل ولا يتم الفوز والنجاح .

وقد روى أبو نعيم فى الحلية عن جعفر الصادق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال الله تعالى له اسجد لآدم قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس .

(د) استدلاله على خيريته بالمادة التى منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء ولا تثبت بالبرهان ، إلى أن كثيرا من المواد النفسية خسيسة الأصل ، ألا ترى أن أصل المسك الدم ، والماس من (الكربون) الذى هو أصل الفحم ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(هـ) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية التى فى هـذه الأرض إما من الطين مباشرة أو بالواسطة وهى خير ما فيها ، وليس للنار شىء من هذه المزايا ولا مايقرب منها .

(ز) إنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمى والعملى أكثر من سواه ، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، فكان بذلك أفضل منهم ، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة لربهم .

وكل ما قدمنا مبنى على أن الأمر بالسجود أمر تكليف ، وأنه قد وقع حوار بين الله و إبليس .

ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم —مسخرين لآدم وذريته، وجعل هـذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها بعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فالانتفاع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ،

وبذلك ظهرت حكمة الله تعالى وآياته فيها ، كما اصطفى بعض أفراده وخصهم بوحيه ورسالته وجعلهم مبشرين بدينه وهديه ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله تعالى وإقامة سننه فى صلاح الخلق ، وبين روح الجن الذين يغلب على شرارهم (وهم الشياطين) التمرد والعصيان .

كما أنه تعالى آتى الإنسان إرادة واختيارا إن شاء صعد إلى أفق الملائكة ، وإن أراد هبط إلى أفق الشياطين .

(قال فاهبط منها) أى اهبط من الجنة التى خلقك الله فيها وكانت على مرتفع من الأرض حين كانت قريبة العهد بالظهور فى وسط الماء ، نخير ما يصلح منها لسكنى الإنسان مرتفعاتها .

وقيل هى جنة الجزاء التى أسكنه الله فيها بعد خلقه فى الأرض ، ويرشد إلى هذا ما جاء فى سورتى البقرة وطه من أمره بالهبوط وأمر آدم وزوجه بذلك بعد قوله : « اُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » .

(فما يكون لك أن تتكبر فيها) أى فما ينبغى لك أن تتكبر فى هذا المكان المعد للكرامة والتعظيم .

(فاخرج إنك من الصاغرين) أى فاخرج من هذا المكان ، فإنك من ذوى الذلة والهوان ، وقد أظهر حقيقتك الامتحان ، ودل على أنك من الأشرار لا الأخيار .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى جازاه بضد ما أراد ، فقد أراد أن يرفع نفسه عن منزلتها فجوزى بالهبوط منها إلى ما دونها ، وجاء فى بعض الآثار : «إن الله تعالى يحشر المتكبرين يوم القيامة فى أحقر الصور ، إذ يطؤهم الناس بأرجلهم ، كما أنه يبغّضهم إلى الناس فى الدنيا ، فيحتقرونهم ولو فى أنفسهم » .

(قال أنظرنى إلى يوم يبعثون) أى قال رب أمهلنى إلى يوم يبعث آدم وذريته فأكون أنا وذريتى أحياء ما داموا أحياء ، وأشهد انقراضهم وبعثهم .

وقد أراد بذلك أن يجد فسحة فى الإغواء فيأخذ بالثأر، ثم هو مع ذلك ينجو من الموت إذ لاموت بعد البعث .

(قال إنك من المنظرين) أى قال سبحانه : إنى أجبتك إلى ما طلبت ، لما فى ذلك من الحكمة التى أنا بها عليم .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى جعله من المنظرين إلى يوم يبعثون ، لكن جاءفى سورة الحجر: «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» فهذا يدل على أن النظرة إلى وقت النفخة الأولى بالصور ، وهى النفخة التى يموت فيها أهل الأرض جميعا دفعة واحدة ، لا إلى وقت النفخة الثانية وهى التى بها يبعثون ، وورد أن بينهما أربعين سنة .

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفزع لقوله تعالى فى سورة النمل : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ » ونفخة الصعق لقوله فى سورة الزمر : « وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » .

روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن هذه الآية : من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا ؟ قال : هم شهداء الله عز وجل ، أى هم حججه على خلقه بحسن سيرتهم واستقامتهم فى الدنيا وهم يشهدون فى الآخرة بضلال كل من خالف هديهم وسنتهم ، ويدخل فى هؤلاء النبيون والصديقون ، فكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » وكذلك كل صدّيق شهيد .

والخلاصة — إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى التى يتلوها خراب هذه الأرض كما قال فى سورة الحاقة : « فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » .

ولا يبقى إلى يوم البعث ، إلا إذا قلنا إن يوم البعث و يوم القيامة يطلقان تارة على ما يشمل زمن مقدماتهما ، وتارة أخرى على زمن الغاية وحدها .

(قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) صراط الله المستقيم: هو الطريق الذى يصل سالكه إلى السعادة التى أعدها سبحانه لمن زكى نفسه بهدى الدين الحق الذى يكمل الفطرة كما جاء فى الخبر : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

أى قال إبليس : فبإغوائك إياى من أجل آدم وذريته ، أقسم لأقعدنّ لهم على صراطك المستقيم ، فأصدنهم عنه وأقطعنه عليهم بأن أزين لهم طرقا أخرى أشرعها لهم من جوانب هذا الطريق حتى يضلوا عنه ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى ثم لا أدع جهة من الجهات الأربع إلا هاجمتهم منها مترصدا لهم كما يقعد قطاع الطريق للسابلة .

وخلاصة ذلك — لأسولنّ لهم ولأضلنهم قدر المستطاع ، وقد ضرب لذلك المثل بحال العدو يأتى عدوه من أى جهة أمكنته و يفترص الفرصة إذا سنحت له .

(ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى ولا تجد أكثرهم مطيعين لك وشاكرين لنعمك عليهم فى عقولهم ومشاعرهم ومعايشهم وفى كل ما يهديهم إلى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك لهم ، بل الأقلون منهم هم الذين يتبعون ذلك ، وقد قال إبليس ذلك عن ظن فأصاب لقوله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وروى عن ابن عباس فى تفسير الجهات الأربع : من بين أيديهم أى أشككهم فى آخرتهم ، ومن خلفهم أى أرغبهم فى دنياهم ، وعن أيمانهم أى أشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم أى أستنّ لهم المعاصى، ولا تجد أكثرهم شاكرين أى موحدين؛

وفى رواية أخرى عنه - من بين أيديهم أى من قبل الدنيا ، ومن خلفهم أى من قبل الآخرة ، وعن أيمانهم أى من قبل حسناتهم ، وعن شمائلهم أى من قبل سيئاتهم .

والرواية الثانية تخالف الأولى فى تفسير ما بين الأيدى : هل المراد منه ماهو حاضر أو ما هو مستقبل ، وفى تفسير الخلف : هل المراد منه ما يتركه المرء ويتخلف عنه وهو الدنيا ، أو هو ماوراء حياته الحاضرة وهو الآخرة ، واللفظ محتمل لكلا التأويلين .

روى أحمد وأبو داود والنسائى من حديث ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات : « اللهم احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أُغتال من تحتى » .

(قال اخرج منها مذءوما مدحورا) أى قال اخرج من الجنة وأنت مذموم مهان من الله وملائكته ومطرود من جنته .

(لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) أى أقسم إن من يتبعك من بنى آدم فيما تزينه له من الشرك والفجور ، ويصدق ظنك عليه -- ليكونن معك فى جهنم دار العذاب ، ولأملأنها منك وممن تبعك منهم أجمعين .

وفى قوله منهم إشارة إلى أن الملء يكون من بعضهم ، فإن بعض من يتبعه فى بعض المعاصى من المؤمنين الموحدين يغفر الله لهم ويعفو عنهم .

ونحو الآية قوله فى سورة صٓ : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

وقد استثنى فى سورتى الحجر وصٓ من إغوائه عباده المخلصين ، فقال فى الأولى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » وقال فى الثانية: « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

وقد علمت أن المراد من هذا بيان طبيعة البشر وطبيعة الشيطان واستعدادهما واختيارهما فى أعمالها كما هو رأى بعض العلماء ، وأيد ذلك الحافظ ابن كثير .

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) .

شرح المفردات

أصل الوسوسة : الصوت الخفى المكرر، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة، ووسوسة الشيطان للبشر : ما يجدونه فى أنفسهم من الخواطر الرديئة التى تزين لهم ما يضرهم فى أبدانهم أو أرواحهم ، وورى الشيء: غطى وستر ، والسوءة: مايسوء الإنسان أن يراه غيره من أمر شائن وعمل قبيح ، و إذا أضيفت إلى الإنسان أريد بها عورته

الفاحشة ، لأنه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطرى ، من الخالدين أى الذين لا يموتون أبدا ، وقاسمهما أى أقسم وحلف لهما ، ودلى الشيء تدلية : أرسله إلى أسفل رويدا رويدا ، والغرور : الخداع بالباطل ، طفقا أى أخذا وشرعا ، يخصفان أى يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قولهم : خصف الإسكافى النعل : إذا وضع عليها مثلها .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث متصلا فى الكلام فى النشأة الأولى للبشر وفى شياطين الجن ، وقد ذكرت تمهيدا لهداية الناس بما يتلوها من الآيات فى وعظ بنى آدم وإرشادهم إلى مابه تكمل فطرتهم ، وفى ذلك امتنان عليهم وذكر لكرامة أبيهم .

الإيضاح

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الجنة : هى التى خلق فيها آدم ، فآدم خلق من الأرض فى الأرض .

وقد تكررت هذه القصة فى سبعة مواضع من الكتاب العزيز ، ولم يرد فى موضع منها أن الله رفعه إلى الجنة التى هى دار الجزاء ، وإن كان الجمهور على أنها جنة الجزاء على الأعمال . ويرده أنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولا تكليف فى دار الجزاء ، ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس ، ولا نوم فى الجنة ، ولا خروج بعد الدخول ، ولا يمكن دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج .

والآية تدل على أن آدم كان له زوج فى الجنة ، وفى التوراة (إن الله ألقى على آدم سباتا انتزع فى أثنائه ضلعا من أضلاعه ، نخلق منه حواء امرأته ، وأنها سميت امرأة لأنها من امرئ أخذت) وليس فى القرآن ما يدل على هذا ، وما روى من ذلك مأخوذ من الإسرائيليات ، وما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم

« فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو من باب التمثيل على حد قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » والدليل على ذلك قوله بعد : « فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فإنه لاشك أن المراد منه ـ لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة والغلظة فى المعاملة .

(فكلا من حيث شئتما) أى فكلا من ثمارها من أى مكان أردتما .

(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) النهى عن قرب الشىء أبلغ أثرا من النهى عن الشىء نفسه ، إذ أنه يقتضى البعد عن موارد الشبهات التى تغرى به كما جاء فى الحديث : « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

وقد أبهم سبحانه هذه الشجرة ، ولو كان فى تعيينها خير لنا لعينها ، وقد علل القرآن النهى عنها ، بأنهما إذا اقتربا منها كانا من الظالمين لأنفسهما بفعلهما ما يعاقبان عليه ولو بالحرمان من رغد العيش وما يعقبه من التعب والمشقة .

(فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوءاتهما) أى زين لهما ما يضرهما و يسوءهما إذا هما رأيا ما يؤثران ستره وألا يُرى مكشوفا ، والأرجح أن هذه الوسوسة كانت بأن تمثل الشيطان لآدم وزوجه وكلمهما .

(وقال ما نهاكما ربكما عن هـذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أى وقال لهما فيما وسوس به : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأحد أمرين : كراهة أن تكونا بالأكل منها كالملكين فيما أوتى الملائكة من الخصائص والمزايا : كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بتأثيرات الكون المؤلمة المتعبة ، أو كراهة أن تكونا من الخالدين فى الجنة ، أى الذين لا يموتون البتة .

والخلاصة — إنه أوهمهما أن الأكل من هـذه الشجرة إما أن يعطى الآكل صفات الملائكة وغرائزهم ، أو يقتضى الخلود فى الحياة .

وفى الآية إيماء إلى تفضيل الملائكة على آدم ، وخصصه بعضهم بملائكة

السماء والعرش والكرسى من العالين والمقربين ، دون ملائكة الأرض المسخرين لتدبير أمورها و إحكام نظامها.

(وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) أى وأقسم إنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الأكل من الشجرة ، وأكد ذلك بأشد المؤكدات وأغلظها ، إذ كان عندهما محل الظِّنة فى نصحه ، لأن الله أخبرهما أنه عدو لهما .

(فدلاهما بغرور) أى فما زال يخدعهما بالترغيب فى الأكل من هذه الشجرة والقسم على أنه ناصح لهما حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة البارئ لهما بما غرهما به وزين لهما ، وقد اغترا به وانخدعا بقسمه وصدقا قوله اعتقادا منهما أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا .

ويرى بعض العلماء أن الغرور كان بتزيين الشهوة ، فإن من غرائز البشر وطبائعهم كشف المجهول والرغبة فى الممنوع، فقد نفخ الشيطان فى نار هذه الشهوات الغريزية وأثار النفس إلى مخالفة النهى حتى نسى آدم عهد ربه ، ولم يكن له من قوة العزم ما يكفه عن متابعة امرأته ، ويعتصم به من تأثير شيطانه كما قال فى سورة طه : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » وجاء فى الصحيح عن أبى هريرة : « ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » أى لأنها هى التى زينت له الأكل من الشجرة ، وقد فطرت المرأة على تزيين ما تشتهيه للرجل ولو بالخيانة له .

(فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوءته وسوءة صاحبه وكانت مستورة عنهما ، فدبت فيها شهوة التناسل بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفيا عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يلزقان ويربطان على أبدانهما من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها .

وهذه المواراة معنوية كما هو الظاهر ، وقد تكون حسية ويكون الساتر هذا الشعر الخلقى وإن كانت قد تظهر الشهوة ما يخفيه .

والخلاصة — إن الشيطان لما وسوس لهما بقوله : مانهاكما ربكما الخ ولم يقبلا منه ما قال — لجأ إلى اليمين كما دل على ذلك قوله : وقاسمهما ، فلم يصدقاه أيضا ، فعدل بعد ذلك إلى الخداع كما أشار إلى ذلك بقوله: فدلاهما بغرور أى إنه شغلهما بتحصيل اللذات فجعلاها نصب أعينهما ونسيا النهى كما يدل على ذلك قوله : « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » .

وقد عاتبه الله على تركه التحفظ والحيطة والتدبر فى عواقب الأمور فقال :

(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟) أى وناداهما ربهما معاتبا لهما وموبخا لهما وقال : ألم أنهكما عن أن تقربا هذه الشجرة وأقل لكما إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعتماه أخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء فى العيش والتعب والنصب فى الحياة .

ونحو الآية قوله فى سورة طه : « فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » .

(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أى قالا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان ومعصيتنا لأمرك وقد أنذرتنا ، وإن لم تغفر لنا ما ظلمنا به أنفسنا وترحمنا بالرضا عنا وتوفيقنا إلى الهداية وترك الظلم ، وبقبول توبتنا إذا نحن أنبنا إليك ، وإعطائنا من فضلك فوق ما نستحق — لنكونن من الخاسرين لأنفسنا وللفوز والفلاح بتزكيتها .

والخلاصة — إن الظفر بالمقصود والفوز بالسعادة لاينالها بمغفرتك ورحمتك إلا من ينيب إليك ويتبع سبيلك ، ولا ينالها من يصر على ذنبه ويحتج على ربه كما فعل الذى أبى واستكبر فكان من الخاسرين .

ونحو الآية قوله فى سورة البقرة : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو) يرى كثير من سلف الأمة أن هذا الخطاب لآدم وحواء ، وإبليس عليه اللعنة ، أى اهبطوا من هذه الجنة بعضكم عدو لبعض أى إن الشيطان عدو للإنسان ، فعلى الإنسان ألا يغفل عن عداوته ولا يأمن وسوسته وإغواءه كما جاء فى قوله : « إِنَّ الشَّيطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وهذا الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية التى بها ظلما أنفسهما ، وقد قضت به سنة الله فى الخلق ، إذ جعله أثرا طبيعيا للعمل السيء مترتبا عليه ، أما العقاب الأخروى على عصيان الرب فقد غفره الله له بالتوبة التى أذهبت أثره من النفس وجعلتها محلا لاصطفائه كما قال فى سورة طٰه : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيهِ وَهَدَى » .

(ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أى ولكم فى الأرض استقرار وبقاء إلى زمن مقدر فى علم الله وهو الأجل الذى به تنتهى فيه أعماركم وتقوم فيه القيامة ، كما أن لكم فيها متاعا تنتفعون به فى معيشتكم .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » .

ثم فصل هذا القول المجمل :

(قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) أى فى هذه الأرض التى خلقتم منها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم وللنوع بأسره ، وفيها تموتون حين انتهائه ، ومنها تخرجون بعد موتكم كلكم ، وحين ما يريد المولى أن يبعثكم من مرقدكم للنشأة الآخرة .

ونحو الآية قوله تعالى فى سورة طه : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

مغزى هـــذا القصص

قص الله سبحانه علينا خبر النشأة الأولى ليرشدنا إلى ما فطرنا عليه ، و إلى ما يجب علينا من شكره وطاعته ، ويبين لنا أنه خلق الإنسان ليكون خليفة فى الأرض ، وجعله مستعدا لعلم كل شىء فيها وتسخير ما فيها من القوى لمنافعه وليهدينا إلى أنه كان فى نشأته الأولى فى جنة النعيم وراحة البال ، وقد جعله مستعدا للتأثر بالأرواح الملـكية التى تجذبه إلى الحق والخير والأرواح الشيطانية التى تجذبه إلى الباطل والشر ، وعاقبة التأثر الأول سعادة الدارين ، ونتيجة الثانى الشقاء فيهما ، وهو أيضا محتاج إلى الوحى لإرشاده وهدايته .

فعلينا أن نعرف غرائزنا ونربى أنفسنا على أن تتذكر عهـد الله إلينا بأن نعبده وحده ولا نعبد معه أحدا سواه ، ولا ننساه فننسى أنفسنا ونغفل عن تزكيتها ونتركها كالريشة فى مهابّ أهواء الشهوات ووساوس شياطين الضلالات .

وعلينا أن نعرف أن آدم لم يكن نبيا ورسولا عند بدء خلقه ولا موضعا للرسالة فى ذلك الحين ، بل أنكر بعضهم أن يكون رسولا مطلقا ، وقال إن أول الرسل نوح عليه السلام كما تدل على ذلك الآيات الواردة فى الرسل والأحاديث الصحيحة ، وما ورد فى هذه القصة من التفسير بالمأثور فأكثره مدخول مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا فى الإسلام للـكيد له وكان الرواة ينقلون عن الصحابى أو التابعى ما مصدره من الإسرائيليات فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لابد له من أصل مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعرف بالرأى .

يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِكَ خَيْرٌ ، ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

الريش: لباس الحاجة والزينة ، ولباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به فى الحرب، والفتنة: الابتلاء والاختبار، من قولهم: فتن الصائغ الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار ، والقبيل : الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أمر سبحانه آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعل الأرض مستقرا لهما ، وذكر أن الشيطان عدو لهما — ذكر هنا أنه أنزل له ولبنيه كل ما يحتاجون إليه فى دينهم ودنياهم كاللباس الذى يسترون به عوراتهم ويتخذونه للزينة ولباس الحرب كالمغافر والجواشن ونحوها ، فعليكم أن تشكروه تعالى على هذه المنن العظام ، وتعبدوه وحده لا شريك له .

الإيضاح

(يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا) نادى الله بنى آدم وامتن عليهم بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وتعدد أنواعه ، من الأدنى الذى يستر العورة عن أعين الناس إلى الأعلى من أنواع الحلل التى تشبه ريش الطير فى وقاية البدن من الحر والبرد ، إلى ما فيها من الزينة والجمال .

والخلاصة — إنه يقول : يا بنى آدم ، بقدرتنا قد أنزلنا عليكم من سمائنا لتدبير أموركم لباسا يوارى سوءاتكم ، وريشا تتزينون به فى المجالس والمجتمعات ، وهو أعلى اللباس وأكمله ، وما دون ذلك وهو ما يقى الحر والبرد .

ومعنى إنزال ما ذكر من السماء — إنزال مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما ولدته الحاجة وافتن الناس فى استعماله ، بعد أن تعلموا وسائل صنعه بما أوجد فيهم من الغرائز والصفات التى بها غزلوا ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عد ، ولا سيما فى هذا العهد الذى رقيت فيه الصناعات إلى أقصى مدى وأبعد غاية .

ولا شك أن امتنانه علينا بلباس الزينة دليل على إباحتها والرغبة فى استعمالها ، فالإسلام دين الفطرة ، وليس فيه ما يخالف ما تدعو إليه الحاجة ، وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله فى الخليقة .

(ولباس التقوى ذلك خير) المشهور من كلام التابعين أن لباس التقوى لباس معنوى لا حسى، فقد قال ابن زيد : لباس هو التقوى ، وعن ابن عباس: إنه الإيمان والعمل الصالح ، فإنهما خير من الريش واللباس . وروى عن زيد بن على بن الحسين : أنه لباس الحرب كالدرع والمغفر والآلات التى يتقى بها العدو ، واختاره أبو مسلم الأصفهانى ، ويدل عليه قوله تعالى : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ » .

(ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) أى ذلك الذى تقدم ذكره من النعم بإنزال الملابس من آيات قدرته ودلائل إحسانه وفضله على بنى آدم .

وهذه النعم تؤهلهم لتذكر ذلك الفضل والقيام بما يجب عليهم من الشكر ، والابتعاد من فتنة الشيطان وإبداء العورات أو الإسراف فى استعمال الزينة إلى نحو ذلك .

(يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) من سنن العربية تكرار النداء فى مقام التذكير والوعظ : أى لا تغفلوا يا بنى آدم عن أنفسكم فتمكنوا الشيطان من وسوسته لكم والتحيل فى خداعكم وإيقاعكم فى المعاصى ، كما وسوس لأبويكم آدم وحواء فزين لهما معصية ربهما فأكلا من الشجرة التى نهاهما عنها ، وكان ذلك سببا فى خروجهما من الجنة التى كانا يتمتعان بنعيمها ، ودخولها فى طور آخر يكابدان فيه شقاء المعيشة وهمومها .

(ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما) أى إنه أخرجهما من الجنة وكان سببا فى نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة لأجل أن يريهما سوءاتهما .

وفى ذلك إيماء إلى أنهما كانا يعيشان عريانين ، لأنه ليس فى الأرض ثياب تصنع ، وليس هناك إلا أوراق الأشجار ، وعلماء العاديات والآثار يحكمون حكما جازما بأن البشر قبل اهتدائهم إلى الصناعات كانوا يعيشون عراة ، ثم اكتسوا بورق الشجر وجلود الحيوان التى يصطادونها ، ولا يزال المتوحشون منهم إلى الآن يعيشون كذلك .

(إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) أى إن إبليس وجنوده من شياطين الجن يرونكم ولا ترونهم ، والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أشد ، ووجوب العناية باتقائه أعظم ، كما يرى ذلك فى بعض الأوبئة التى ثبت وجودها فى هذا العصر بالمجهر (التليسكوب) فإنها تنفذ إلى الأجسام بنقل الذباب أو البعوض أو مع الطعام أو الشراب أو الهواء ، فتتوالد وتنمو بسرعة ، وقد تسبب للإنسان أمراضا مستعصية العلاج كالحمى الصفراء (الملاريا) والتقويد والتيفوس والسل والسرطان إلى نحو أولئك .

وفعل جِنة الشياطين فى أرواح البشر كفعل هذه الجنة التى يسميها الأطباء (الميكروبات) فى الأجسام ، فكلاهما يؤثر من حيث لا يرى فيتقى ، والثانية تتقى بالأخذ بنصائح الأطباء واستعمال الوسائل العلاجية الواقية .

والوقاية منها ضربان :

(١) اتخاذ الأسباب التى تمنع مجيئها من الخارج كالذى تفعله الحكومات فى المحاجر الصحية فى الثغور ومداخل البلاد .

(٢) تقوية الأبدان بالأغذية الجيدة والنظافة التامة لتقوى على مقاومة هذه الجِنّة والفتك بها إذا وصلت إليها ، كما يتقى وصول العُث إلى الصوف بمنع وصول الغبار إليه أو بوضع الدواء الذى يسمى (النفتالين) إذ يقتله برائحته .

والأولى تتقى أيضا بإرشاد طب الأنفس والأرواح الذى يهدى إلى الوقاية من فتك جنة الشياطين فيها بالوسوسة وتزيين الأباطيل والشرور المحرمة فى هذا الطب لضررها ، فمداخلها فى أنفسهم وتأثيرها فى خواطرهم كدخول تلك الجنة فى أجسادهم وتأثيرها فى أعضائهم من حيث لا ترى .

والوقاية منها على ضربين :

(١) بتقوية الأرواح بالإيمان بالله وصفاته وإخلاص العبادة له والتخلق بالأخلاق الكريمة وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فتبتعد تلك الأرواح الشيطانية عنها ولا تستطيع القرب منها .

(٢) بمعالجة هذا الوسواس بعد طروئه كما يعالج المرض بعد حدوثه بالأدوية التى تقتله وتمنع امتداد ضرره .

والخلاصة ـ إن هذه الجملة (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) جاءت تعليلا للنهى عن تمكين الشيطان مما يبغى من الفتنة ، وتأكيدا للتحذير منه ، وتذكيرا بشديد عداوته وضرره (والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان شديد الأثر عظيم الخطر) .

(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أى إن سنتنا جرت بأن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته إيمان إذعان تزكو به نفوسهم ، لما بينهما من التناسب والتشاكل

واكتساب الكفار لولاية الشياطين جاءت بسبب استعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم وعدم احتراسهم من الخواطر الرديئة ، كما كتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها وعدم احتراسهم من أسبابها كتناول الأطعمة والأشربة الفاسدة والوجود فى جوّ مملوء بالجراثيم القتالة بعدم تعرضه للشمس والنور والهواء المتجدد .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) .

شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة المتناهية فى القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراة كما ولدتهم أمهاتهم و يقولون لا نطوف بيت ربنا فى ثياب عصيناه بها ، والقسط : الاعتدال فى جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط ، و إقامة الشيء : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة و إقامة الوزن بالقسط ، والوجه : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما فى قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما فى قوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً »

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم ـ ذكر هنا أثر ذلك التسليط عليهم وهو الطاعة لهم فى أقبح الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبح .

الإيضاح

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أى وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله ممن جعلوا الشياطين أولياء لهم ـ قبيحا من الأفعال كتعريهم حين الطواف بالبيت ، فلامهم الناس على ذلك ، قالوا وجدنا آباءنا يفعلون كما نفعل فنحن نقتدى بهم ونستنّ بسنتهم ، والله أمرنا بذلك فنحن نتبع أمره فيه . وقد رد الله عن الأمر الثانى بأمر رسوله أن يدحضه بقوله :

(قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) أى إن هـذا الفعل من الفحشاء والله بكماله منزه أن يأمر بها ، وإنما يأمر بها الشيطان كما جاء فى قوله « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

ثم رد عليهم الوجه الأول ووبخهم على تقليد الآباء والأجداد بقوله :

(أتقولون على الله ما لا تعلمون) أى إنكم باتباعكم للآباء والأجداد فى الآراء والشرائع غير المسندة إلى الوحى تقولون على الله ما لا تعلمون أنه شرعه لعباده .

والخلاصة — إنهم فى عملهم الفاحشة استندوا إلى أمرين أمر الله بهما وتقليد الآباء والأجداد ، وقد رد الله عليهما فى كل منهما ، فرد على الأول ببيان أن الله لا يأمر بفاحشة وأن الذى يأمر بذلك إنما هو الشيطان ، ورد على الثانى بأن التشريع لا يعلم إلا بوحى من عنده إلى رسول يؤيده بالآيات البينات وهو لم ينزل عليهم به ، فقولهم

هذا إنما هو اتباع للأهواء في هو قبيح تنفر منه الطباع السليمة ، وتستنقصه العقول الراجحة الحكيمة .

وبعد أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم بأمر الله في فعلوا - بين ما يأمر به من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والخصال بقوله لرسوله :

(قل أمر ربى بالقسط) أى قل لهم : إنما أمرنى ربى بالاستقامة والعدل فى الأمور كلها .

(وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أى وقل لهم أمرنى ربى بالقسط ، فأقسطوا وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، أى أعطوا توجهكم إلى الله تعالى حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل عند كل مسجد تعبدونه فيه ، سواء كانت العبادة طوافا أو صلاة أو ذكراً ، وادعوه وحده مخلصين له الدين ، ولا تتوجهوا إلى غيره من عباده المكرمين كالملائكة والأنبياء والصالحين زعما منكم أنهم يشفعون لكم عند ربكم ويقربونكم إليه زلفى ، وقد جعلتم هذا من الدين افتراء على الله وقولا عليه بغير علم .

وبعد أن أبان أصل الدين ومناط الأمر والنهى فيه - ذكَّرنا بالبعث والجزاء على الأعمال فقال :

(كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريق حق عليهم الضلالة) أى كما بدأكم ربكم خلقا وتكوينا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة وأنتم فريقان :

(١) فريق هداه الله فى الدنيا ببعثة الرسل فاهتدى بهديهم وأقام وجهه له وحده فى العبادة ودعاه مخلصا له الدين لا يشرك به أحداً .

(٢) فريق حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان وإعراضهم عن طاعة بارئهم .

وكل فريق يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ، وإنما حقت

على الفريق الثانى الضلالة ، لأنهم اقترفوا أسبابها فوجدت نتائجها ومسبباتها ، لا أنها جعلت غرائز لهم فكانوا عليها مجبورين ، يرشد إلى ذلك قوله :

(إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) أى إنهم حين أطاعوا الشياطين فيما زينوا لهم من الفواحش والمنكرات ، فكأنهم ولوهم أمورهم من دون الله الذى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وهم مع عملهم هذا يحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات ، كجعل التوجه إلى غير الله والتوسل إليه فى الدعاء مما يقربهم إلى الله زلفى ، قياسا على الملوك الجاهلين الذين لايقبلون الصفح عن مذنب إلا بوساطة بعض المقربين عنده .

والكثير من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون ، وهم ما بين كافر جحود للحق كبرا وعنادا كأعداء الرسل فى عصورهم وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله كما حكى الله عن فرعون وملئه « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » وكالكبراء من قريش أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث فى جمع كثير منهم وهم الذين قال الله فيهم : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » وهؤلاء هم الأقلون عددا ـ وكافر بالتقليد واتباع نزغات الشيطان ، أو باتباع الآراء الخاطئة والنظريات الفاسدة ، وهم الذين قال الله فيهم : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » وهؤلاء هم جمهرة الناس فى جميع الأمم .

وذهب كثير من العلماء إلى أن من بذل جهده فى البحث والنظر فى الحق ، ثم اتبع ما ظهر له أنه الحق على حسب ما وصلت إليه طاقته ، وكان مخالفا فى شىء منه لما جاءت به الرسل ـ لايدخل فى مدلول هذه الآية ونحوها ، بل يكون معذورا عند الله لقوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أنه أمر عباده بالعدل فى كل الأمور واتباع الوسط منها — طلب إلينا أن نأخذ الزينة فى كل مجتمع للعبادة ، فنستعمل الثياب الحسنة فى الصلاة والطواف ونحو ذلك ، كما أباح لنا أن نأكل ونشرب مما خلق الله بشرط ألا نسرف فى شىء من ذلك .

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : كان الناس يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لانطوف فى ثياب أذنبنا فيها ، فجاءت امرأة فألقت ثيابها فطافت ووضعت يدها على قبلها وقالت :

اليوم يبــدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحــــله

فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) الزينة ما يزين الشىء أو الشخص وأخذها التزيين بها ، والمراد بالزينة هنا الثياب الحسنة كما يدل على ذلك سبب نزول الآيات ، وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس وهو ما يستر عورته ، وهو الواجب لصحة الصلاة والطواف ، وما زاد على ذلك من التجمل بزينة اللباس عند الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة والعيدين فهو سنة لاواجب .

ويرى بعض العلماء وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد على حسب عرف الناس فى تزينهم فى المجامع والمحافل، ليكون المؤمن حين عبادة ربه مع عباده المؤمنين فى أجمل حال لاتقصير فيها ولا إسراف .

أخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه ، فإن الله عز وجل أحق من تزين له فإن لم يكن له ثوبان فليتزر إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم فى صلاته اشتمال اليهود » .

وأخرج الشافعى وأحمد والبخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يصلينّ أحدكم فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شىء » .

وعلى الجملة فالزينة تختلف باختلاف حال الإنسان فى السعة والضيق ، فمن عنده ثوب واحد يستر جميع بدنه فليستتر به جميع بدنه وليصلّ به ، فإن لم يستر إلا العورة كلها أو الغليظة منها وهى السوءتان فليستتر به ما يستره ، ومن وجد ثوبين أو أكثر فليصل بهما .

وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصل من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين وكان سببا فى تعليم القبائل المتوحشة القاطنة فى الكهوف والغابات أفراداً وجماعات لبس الثياب عند دخولها فى حظيرة الإسلام ، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراة الأجسام رجالا ونساء حتى ذكر بعض المنصفين من الإفرنج أن لانتشار الإسلام فى إفريقية منة على أوربا بنشره للمدنية بين أهلها ، إذ ألزمهم ترك العرى وأوجب لبس الثياب ، فكان ذلك سببا فى رواج تجارة المنسوجات .

وبهذا نقل الإسلام أمما وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية .

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين) أى خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات ، وكلوا واشربوا من الطيبات ، ولا تسرفوا فيها ، بل عليكم بالاعتدال فى جميع ذلك ، لأن الله الخالق لهذه النعم لايحب المسرفين فيها ،

بل يعاقبهم على هذا الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه من المضار والمفاسد ، لأنهم قد خالفوا سنن الفطرة وجنوا على أنفسهم فى أبدانهم وأموالهم ، وجنوا على أسرهم وأوطانهم ، إذ هم أعضاء فى جسم الأسرة والأمة .

روى النسائى وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مَخِيلَة (كبر وإعجاب بالنفس) ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » .

وعن ابن عباس أنه قال : كل ما شئت ، واشرب ما شئت ، والبس ما شئت إذا أخطأتك اثنتان : سرف أو مَخِيلة .

والإسراف : تجاوز الحد فى كل شىء ، والحدود منها :

(١) طبيعى كالجوع والشبع والظمأ والرى ، فمن أكل إذا أحس بالجوع أو كف عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستلذ الاستزادة ، أو شرب إذا شعر بالظمأ واكتفى بما يزيله ولم يزد على ذلك لم يكن مسرفا فى أكله وشربه وكان طعامه وشرابه نافعين له.

(٢) اقتصادى وهو أن تكون النفقة على نسبة معينة من دخل الإنسان بحيث لاتستغرق كسبه .

(٣) شرعى فإن الشارع حرم من الطعام الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم من الشراب الخمر ، وحرم من اللباس الحرير الخالص ، أو الغالب على الرجال دون النساء ، وحرم الأكل والشرب فى أوانى الذهب والفضة وعده من السرف المنهى عنه ، فهذه الأشياء لا يباح استعمالها إلا لضرورة تقدر بقدرها .

والمعول عليه فى الإنفاق فى كل طبقة عرف المعتدلين فيها ، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه وأقدر كان مسرفا ، وكم جرّ الإسراف إلى خراب بيوت عامرة ولا سيما فى المهور وتجهيز العرائس وحفل العرس والمآتم و(الزار) .

ثلاثة تشقى بها الدار العرس والمـأتم والزار

وهذا السرف كبير الضرر عظيم الخطر على الأمم أكثر من ضرره على الأفراد

ولا سيما فى البلاد التى تأتى إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية عنها ، إذ تذهب الثروة إلى غير أهلها ، وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استذلالهم والعدوان عليهم.

والخلاصة — إن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية ، ولكن ضل فى ذلك فريقان :

(ا) فريق البخلاء والغلاة فى الدين الذين تركوا الأكل والشرب من الطيبات المستلذة ، إما بخلا وشحا أو تحرجا وتأثما، إما دائما أو فى أوقات مخصوصة من السنة .

(ب) فريق المترفين الذين أسرفوا فى اللذات البدنية وجعلوها جل همهم ، فهم يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ، وليس لهم غاية يقفون عندها ، أو نهاية ينتهون إليها .

(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) إخراج الله الزينة خلق موادها وتعليم طرق صنعها بما أودع فى فطرهم من حبها والميل إلى الافتنان فى استعمالها ، إذ خلقهم مستعدين لإظهار آياته فى جميع ما خلق فى هذا العالم الذى يعيشون فيه ، بما أودع فى غرائزهم من الميل إلى البحث فى كشف المجهول والاطلاع على خفايا الأمور، فهم لايدعون شيئا عرفوه بحواسهم أوعقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى وأوجه لانهاية لها ، ولن تنتهى بحوثهم مادام الإنسان على ظهر البسيطة.

وغريزة حب الزينة وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب فى اتساع أعمال الفلاحة والزراعة ورقىّ ضروب الصناعة ، واتساع وسائل العمران ، ومعرفة سنن الله وآياته فى الأكوان ، وهما لايذمان إلا بالإسراف فيهما والغفلة عن شكر المنعم بهما .

والخلاصة — إن الدين لم يحرمهما إلا إذا كانا عائقين عن الكمال الروحى والكمال الخلقى ، وإنه لم يجعل تركهما قربة إلى الله كما جرى على ذلك الوثنيون من البراهمة وغيرهم وقلدهم فى ذلك بعض المسلمين وصاروا يمشون فى الأمم الإسلامية

نعاليم تقضى بأن روح الدين ومخ العبادة فى التقشف وحرمان النفس من التمتع بلذات الحياة ، وقد بين الله وجه الصواب فى ذلك بقوله لرسوله :

(قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) أى قل أيها الرسول لأمتك : إن الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرهم تبعا لهم وإن لم يستحقها مثلهم ، وهى خالصة لهم يوم القيامة .

وقصارى ذلك — إن الدين يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعاً كما يدل على ذلك قوله : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» وقوله : «وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا» .

ذاك أن المؤمن يزداد علما وإيمانا بربه وشكرا له كلما عرف شيئا من منته وآياته فى نفسه أو فى غيرها من الكائنات ، ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله من شكر الجوارح كشكر اللسان بالثناء عليه وشكر سائر الأعضاء كذلك ، ففى حديث أبى هريرة عند أحمد والترمذى والحاكم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» والسر فى هذا أن الأكل والشرب من الطيبات بدون إسراف هما قوام الحياة والصحة ، وهما الدعامتان اللتان يتوقف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدنيوية من عقلية وبدنية ، ولهما التأثير العظيم فى جودة النسل الذى به يكثر سواد الأمة .

والملابس الجيدة النظيفة لها فوائد :

(١) حفظ الصحة .

(٢) كرامة من يتجمل بها فى نفوس الناس .

(٣) إظهار نعمة الله على لابسها ، والمؤمن يثاب بنيته على كل ماهو محمود من هذه الأمور بالشكر عليها .

روى أبو داود عن أبى الأحوص قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى ثوب دُونٍ فقال : ألك مال ؟ قلت نعم . قال من أىّ المـال ؟ قلت قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته لك » .

وأخرج الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد كانت العرب تحرم زينة اللباس فى الطواف تعبدا ، وتحرم الادهان ونحوه حال الإحرام بالحج كذلك ، وتحرم من الأنعام والحرث ما ذكر فى سورة الأنعام ، وحرم أهل الـكتاب كثيرا من الطيبات .

فجاء الدين الإسلامى الجامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة والمطهر للنفوس والمهذب للأخلاق ، فأنكر هذا التحكم المخالف لسنن الفطرة وبين أن هذا التحريم لم يكن إلا من وساوس الشيطان ولم يوح به الله إلى أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) أى إن هـذا التفصيل لحـكم الزينة والطيبات الذى ضل فيه كثير من الأمم والأفراد ما بين إفراط وتفريط — لا يعقله إلا الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم ، ونحن قد فصلناه على لسان هذا النبى الأمى الذى لم يكن يعرف شيئا من تاريخ البشر فى أطوار بداوتهم وأطوار حضارتهم قبل أن ننزلها عليه ، فكان ذلك آية دالة على نبوته ، إذ ما كان لمثله أن يعلمها إلا بالوحى من عندنا ، ولولا الـكتاب الـكريم لما خرجت العرب من ظلمات الوثنية والجهالة إلى ذلك النور الذى صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والفنون والآداب وما أحيت من علوم الأوائل .

ولـكن وا أسفا قد أضحى المسلمون من أجهل الشعوب بسنن الله فى الأكوان وبالعلوم والمعارف اللازمة لتقدم الحضارة والمدنية ، وأصبحوا فى مؤخرة الأمم وصاروا مضرب الأمثال فى التأخر والخمول والـكسل ، وبذا استكانوا وذلوا وصاروا أفقر الأمم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم ، وخالفوا ما رسمه لهم ذلك الدين من أن لهم زينة

الدنيا وطيباتها وسعادتها وملكها ، وأن عليهم أن يشكروا الله على ما يؤتيهم من ذلك ، وأن عليهم أن يقوموا بما يرضيه من اتباع الحق والعدل وكل ما تقتضيه خلافتهم فى الأرض .

ولقد بلغ الجهل بكثير منهم أن ظن (و بعض الظن إثم) أن دين الإسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم وذهاب ملكهم ، ولكن كتاب الله وسنة رسوله وتاريخ هذه الأمة شاهد صدق على فساد هذه القضية وتزييف تلك الدعوى ، فليس لها من دعائم تستند إليها ، وتقف بها على رجليها .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

الفواحش: واحدها فاحشة، وهى الخصلة التى يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ؛ و يطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح ، والإثم لغة : القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كبائرها كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة ، والبغى: تجاوز الحد، وقد قالوا بغى الجرح : إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر تقدست أسماؤه ــ فى الآية السالفة على المشركين وغيرهم من أرباب الملل الأخرى تحريم زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق ــ ذكر هنا

أصول المحرمات التى حرمها الله على عباده لضررها ، وجميعها من الأعمال الكسبية لا من المواهب الخُلُقية ، ليستبين للناس أن الله لم يحرم على عباده إلا ماهو ضار لهم .

الإيضاح

(قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين وغيرهم ممن ظلموا أنفسهم وافتروا على الله الكذب فزعموا أن الله حرم على عباده ما أخرج لهم من الطيبات كما حرم عليهم الزينة : ما حرم ربى فى كتبه على ألسنة رسله إلا هذه الأنواع الست الآتية لما لها من شديد الضرر وعظيم الخطر على أنفسهم وعلى الأمة جمعاء ، ومن ثم جعل تحريمها دائما لايباح بحال ، وهى :

(١ - ٢) الفواحش الظاهرة والباطنة وتقدم بيانها وشرحها فى سورة الأنعام وهى إحدى الوصايا العشر التى ذكرت هناك .

(٣) الإثم أى ما يوجب الإثم والذم — وعطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص .

(٤) البغى وهو الإثم الذى فيه تجاوز لحدود الحق أو اعتداء على حقوق الأفراد أوجماعاتهم ، ومن ثم قرن بالعدوان فى قوله : « تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأن تجاوز الحدود المعروفة قد يكون فيما لا ظلم فيه ولا فساد ولا هضم لحقوق الأفراد والجماعات كما فى الأمور التى ليس لهم فيها حقوق أو التى تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمصلحة لهم يرجونها ببذلها .

(٥) الشرك بالله وهو أقبح الفواحش . فلا تقوم عليه حجة من عقل ولا برهان من وحى ، وسميت الحجة سلطانا لأن لها سلطانا على العقل والقلب .

وفى هذا إيماء إلى أن أصول الإيمان لا تقبل إلا بوحى من الله يؤيده البرهان كما قال : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » .

كما أن فيه إرشادا إلى عظم شأن الدليل والبرهان فى الدين ، حتى كأنّ من جاء بالبرهان على الشرك يصدق ، وهذا من فرض المحال مبالغة فى فضل الاستدلال كما قال : « أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

(٦) القول على الله بغير علم ، وهو من أسس المحرمات التى حرمت على ألسنة الرسل جميعا ، إذ هو منشأ تحريف الأديان المحرفة ، وسبب الابتداع فى الدين الحق ، وقد انتشر الابتداع بين أهله وتحكمت بينهم الأهواء واتبعوا سنن من قبلهم كما جاء فى الحديث : « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ؛ قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » رواه الشيخان ورأس البلية فى هذا الابتداع القول فى الدين بالرأى ، فما من أحد يبتدع أو يتبع مبتدعا إلا استدل على بدعته بالرأى ، وقد ظهرت مبادئ هذه البدع والأهواء فى القرون الأولى قرون العلم بالسنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما زال أمرها يستفحل حتى وصلت إلى ما نراه الآن .

وما شرع من اجتهاد الرأى فى حديث معاذ وغيره فهو خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته ، فقد أكمل الله دينه فلم يترك فيه نقصا يكمله غيره بظنه ورأيه بعد وفاة رسوله ، وليس لقاض ولا مفت أن يسند رأيه الاجتهادى إلى الله فيقول هذا حكم الله وهذا دينه ، بل يقول هذا مبلغ اجتهادى ، فإن كان صوابا فمن توفيق الله وإلهامه ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان .

والخلاصة — إنه لا ينبغى لأحد أن يحرم شيئا تحريما دينيا على عباد الله أو يوجب عليهم شيئا إلا بنص صريح عن الله ورسوله ، ومن تهجم على ذلك فقد جعل نفسه شريكا لله ، ومن تبعه فى ذلك فقد جعله ربا له ، ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين يتحامون القول فى الدين بالرأى .

وقد أنكر الله على من نسب إلى دينه تحليل شىء أو تحريمه من عنده بلا برهان فقال : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هٰذَا حَلاَلٌ وَهٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جماع المحرمات على بنى آدم لما فيها من المفاسد والمضار للأفراد والمجتمع إثر بيان المباحات من الزينة والطيبات من الرزق بشرط عدم الإسراف فيها — ذكر هنا حال الأمم فى قبول هذه الأصول أو ردها ، والسير على منهاجها بعد قبولها أو الزيغ عنها .

الإيضاح

(ولكل أمة أجل) أى قل أيها الرسول لقومك ولغيرهم : لكل أمة أمد مضروب لحياتها مقدر لها على حسب السنن التى وضعها الخالق لوجودها .

وهذا الأجل على ضربين ، أجل لوجودها فى الحياة الدنيا ، وأجل لعزها وسعادتها بين الأمم .

(فالأول) أجل لأمة بعث فيها رسول لهدايتها فردوا دعوته كبرا وعنادا واقترحوا عليه الآيات فأعطوها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا فاستمروا فى تكذيبهم فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر ، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وفرعون و إخوان لوط وغيرهم .

وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولى الدعوة الخاصة بأقوامهم ،

وقد انتهى ذلك ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم الذى خاطبه الله بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها ، ومن ثم لم يعط الله تعالى رسوله شيئا مما كانوا يقترحونه عليه .

(والثانى) أجل مقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة باستقلالها ومكانتها بين الأمم وهذا منوط بسنن الله فى الاجتماع البشرى وعوامل الرقى والعمران .

وأسباب انتهاء هـذا الاجتماع لا تعدو مخالفة ما أرشدت إليه الآيات السالفة كإسراف فى الزينة أو إسراف فى التمتع بالطيبات ، أو باقتراف الفواحش والآثام والبغى على الناس ، أو بالتوغل فى خرافات الشرك والوثنية ، أو بالـكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه الله لها من الأحكام .

فالأمم التى ترتكب هذه الضلالات والمفاسد يسلبها الله سعادتها ويسلط عليها من يستذلها كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

وها كم شاهد صدق ما نقول :

إن الأمم التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ كالرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم ممن سلب ملـكهم كله أو بعضه — لم يكن لذلك من سبب سوى ما أسلفنا .

وهذا الضرب من الأجل وإن عرفت أسبابه ، لا يمكن أن يحد بالسنين والأيام ولـكن الله يعلم تحديده بمـا أوجده من الأسباب التى تنتهى بمسبباتها ، وبالمقدمات التى تترتب عليها نتائجها ، كما قال :

(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الساعة لغة : أقل مدة من الزمن أى فإذا جاء الوقت الذى وقته الله لهلاكهم وحلول العقاب بهم لا يتأخرون عنه بالبقاء فى الدنيا أقل تأخر ، كما أنهم لا يتقدمون أيضا عن الوقت الذى جعله لهم وقتا للفناء والهلاك .

وفى الآية إيماء إلى أن الأمة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيئه أى قبل أن تغلبها على إرادتها أسباب الهلاك ، بأن تترك الفواحش والآثام والظلم والبغى والإسراف المفسد للأخلاق وخرافات الشرك المفسدة للعقول وتترك البدع فى التحريم والتحليل بما لم يخاطب به المولى عباده ، بأن يقوم فيها جماعة من المصلحين ، فيرشدوها إلى تغيير ما بأنفسها من الفساد ، فيغير الله ما بها .

وهذا من استئخار الهلاك أو منعه عنها قبل مجىء أجلها .

وتأثير الفسق والفساد فى الأمم يشبه تأثيره فى الأفراد ، فكما أن الأطباء متفقون على أن السكر من أسباب الأمراض البدنية والعقلية التى تفضى إلى الموت ، وعلى أن تأثيره فى البدن القوى دون تأثيره فى البدن الضعيف ، وعلى أن القليل منه يبطىء تأثير ضرره عن تأثير ضرر الكثير منه ـ كذلك أطباء الاجتماع متفقون على أن الإسراف فى الفسق والترف مفسد للأمم ، وأن الظلم والبغى والغلوّ فى المطامع من أسباب الهلاك والدمار ، ولكن قد يكون لدى بعضها ما تقاوم به تأثير هذه الأدواء الاجتماعية كالنظام ومراعاة سنن الاجتماع حتى فى إخفاء الظلم و إتقان الوسائل والأسباب فى إلباس الظلم لباس العدل و إبراز إفسادها فى صورة الإصلاح و إيجاد أنصار من المظلومين يساعدون فى بقاء هذا الظلم ، و إقناع الكثير منهم بأن هذا خير لهم وأبقى ، غير أن كل هذا لا يمنع انتقام الله منهم ، و إنما يؤخره على مقتضى سننه فى عباده ، ولا يمنعه عنهم إلا الرجوع إلى الحق والاعتدال والصلاح والإصلاح .

والأجل المقدر بمقتضى نظام الخلق هو الذى يسميه العلماء بالعمر الطبيعى ، فالطبيب إذا فحص الجسم ورأى أعضاءه الرئيسية ومقدار مناعتها أمكنه أن يقدر له مدة معينة من الحياة إذا عاش بنظام واعتدال على حسب ما وضعه الله من السنن ، فإذا هو قتل أو غرق قبل انتهاء العمر المقدر له يقال مات قبل انتهاء عمره الطبيعى أو التقديرى ولكن مات بأجله الحقيقى عند الله .

وما ورد من أن الدعاء وصلة الرحم يطيلان العمر ، فإنما ذلك بالنسبة للأجل التقديرى أو الطبيعى الذى هو مظهر سنن الله فى الأسباب والمسببات ، فإن الدعاء الذى منشؤه قوة الإيمان بالله والرجاء فى معونته وتوفيقه للمؤمن فيما يعجز عن أسبابه، من أسباب طول العمر ، وكذلك صلة الرحم من أهم أسباب هناء العيش ، وهناؤه من أهم العوامل فى إطالة العمر .

كما دلت التجارب على أن الهموم والأكدار خصوصا ما كان منها داخليا كقطيعة الأرحام واليأس من روح الله ومعونته مما يضعف قوى النفس ويهرم الجسم قبل إبان هرمه ، وقد عرف هذه الحقيقة ذلك الشارع الحكيم حين قال :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

ومثلها فى ذلك قلة الغذاء الذى يحتاج إليه البدن أو كثرته ، والإسراف فى كل لذة ، والسكنى فى الأمكنة التى لا يدخلها ضوء الشمس ولا يتخللها الهواء بالقدر الذى يقتل الجراثيم .

والأمم العريقة فى المدنية والحضارة والعالمة بالسنن الإلهية فى الصحة والسقم والقوة والضعف تحصى دائما عدد المرضى والموتى وتضع لذلك نسبا حسابية تعرف بها متوسط الآجال فى كل منها .

وكذلك قد ثبت ثبوتا لا ريب فيه أن من أسباب قلة الوفيات تحسين وسائل المعيشة والاعتدال فيها ، وتوقى الأمراض باجتناب أسبابها المعروفة قبل وقوعها ومعالجتها بعد حدوثها .

وكل ما يقع فالعلم الإلهى قد سبق به ، وكتاب الله وسنة رسوله يؤيدان ذلك أتم التأييد .

وخلاصة معنى الآية — إن لكل أمة أجلا لا يتأخرون عنه إذا جاء ، ولا يتقدمون عليه أيضا ، فيهلكوا قبل مجيئه ، ونحو الآية قوله : « مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ » .

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت أسماؤه أن لكل أمة أجلا لاتعدوه — حكى هنا ماخاطب به كل أمة على لسان رسولها و بيّنه لها من أصول الدين الذى شرعه لهدايتها وتكميل فطرتها ، وأرشدها إلى أنها إن كانت مطيعة تتقى الله فيما تأتى وتذر ، وتصلح أعمالها فلايحصل لها فى الآخرة خوف ولا حزن ، وإن هى تمردت واستكبرت وكذبت الرسل كانت عاقبتها النار ، و بئس القرار .

الإيضاح

(يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى يابنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من البشر يتلون عليكم آياتى التى أنزلها عليكم لبيان ما آمركم به من صالح الأعمال وترك ما أنهاكم عنه من الشرك والرذائل وقبيح الأعمال — فمن اتقى منكم ما نهيته عنه وأصلح نفسه بفعل ما أوجبته عليه فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة ، ولاهم يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم .

وحكمة كون الرسول منهم أنه أقطع لعذرهم وأظهر فى الحجة عليهم ، إذ معرفتهم بأحواله تبين لهم أن المعجزات التى ظهرت على يديه إنما هى بقدرة الله لا بقدرته — إلى مافى ذلك من حصول الألفة ، فالجنس يألف الجنس و يركن إليه ، ومن ثم قال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً »

(والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

الاستكبار عن قبول الآيات : رفضها كبرا وعنادا لمن جاء بها كما حدث من رؤساء قريش حين استكبروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم إماما لهم ، إذ رأوا أنفسهم أحق بالرياسة منه ، لأنهم أكثر منه مالاً وأعز نفرا .

والمعنى — إن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدا له على الرياسة وتفضيلا لأنفسهم عليه ، أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها أبدا .

والخلاصة — إن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتقاءهم لما يفسد فطرتهم من الشرك والمعاصى ، وإصلاح أنفسهم بالطاعة يوجب الأمن وعدم الخوف مما يتوقع وعدم الحزن على ما وقع منهم فى الدار الأولى ، وأن تكذيب ما جاءوا به من الآيات والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه المكث فى نار جهنم خالدين فيها أبدا كفاء ما فعلوا من التمرد وعصيان أوامر الدين .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السابقة عاقبة المكذبين بآياته المستكبرين عن قبولها والإذعان لها ـ ذكر هنا أن من أشدهم ظلما من يتقولون على الله الكذب ، فينسبون إليه مالم يقله ، كمن يثبت الشريك لله سواء كان صنما أو كوكبا ، أو يضيف إليه أحكاما باطلة ، أو يكذب ما قاله كمن ينكر أن القرآن نزل من عند الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله بأن أوجب على عباده من العبادات مالم يوجبه ، أو حرم عليهم من الدين مالم يحرمه ، أو عزا إلى دينه أحكاما لم تنزل على رسله .

(أو كذب بآياته) المنزلة عليهم سواء أكان بالقول أو بما هو أدل منه كالاستهزاء بها أو الاستكبار عن اتباعها أو بتفضيل غيرها عليها بالعمل بها .

(أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) المراد بالنصيب هنا ما قدر لهم من خير أو شر وسعادة أو شقاء ، والمراد من الكتاب كتاب المقادير الذى كتب الله فيه نظام العالم كله ، ومنها أعمال الأحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الأسباب والدواعى وما يترتب عليها من المسببات كالسعادة والشقاء والصحة والمرض إلى نحو ذلك .

والمعنى — إن هؤلاء المفترين يصيبهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال ، فهم مع ظلمهم وافترائهم على الله لا يحرمون مما قدر لهم إلى انقضاء آجالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » وقوله : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

(حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الرسل هنا هم الملائكة الموكلون بالتوفى أى قبض الأرواح من الأجساد ، أى إنهم ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم حتى إذا ما انتهى بانتهاء آجالهم وجاءتهم رسلنا يقبضون أرواحهم .

(قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟) أى سألهم رسل الموت حين التوفى على سبيل الزجر والتوبيخ : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم فى الدنيا من دون الله لقضاء الحاجات ودفع المضرات ؟ فلتدعوهم لينجوكم مما أنتم فيه من شدة وعذاب .

(قالوا ضلوا عنا) ضلوا: أى غابوا وذهبوا ، لاندرى أين مكانهم، أى غابوا عنا فلا نرجو منهم النفع ولا دفع الضر .

(وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم إياهم وعبادتهم لهم كافرين ، إذ هم قد زعموا أنهم عنده تعالى كأعوان الأمراء والسلاطين ، وحاش لله أن يتخذ الأعوان والمساعدين ، فالله غنى بعلمه المحيط وقدرته الكاملة عن أن يحتاج إلى الأعوان ، فإنما يحتاج إليها من يجهل أمور الناس ويعجز عن معرفة أحوالهم .

وخلاصة هذا — زجر الكافرين عما هم عليه من الكفر وحملهم على النظر والتأمل فى عواقب أمورهم ، والتحذير من التقليد الذى سيرديهم فى الهاوية .

(قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار) أى يقول ملائكته بأمره يوم القيامة لهؤلاء الكافرين : ادخلوا بين أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ، أى أمم تقدم زمانهم على زمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى لايسوق الكفار بأجمعهم إلى النار دفعة واحدة ، بل يدخلهم فوجا فوجا فيكون منهم سابق ومسبوق ، ويشاهد الداخل من الأمة فى النار من سبقه .

(كلما دخلت أمة لعنت أختها) أى كلما دخلت جماعة منهم فى النار ورأت

ما حل بها من الخزى والنكال - لعنت أختها فى الدين والملة ، إذ هى قد ضلت باتباعها والاقتداء بها فى كفرها كما قال : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » .

والخلاصة — إن المشركين يلعنون المشركين ، واليهود تلعن اليهود ، والنصارى تلعن النصارى ، وهكذا القول فى سائر الديانات الضالة كالمجوس والصابئة .

(حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) اداركوا ، أى تلاحقوا وأدرك بعضهم بعضا واستقر معه ، وضعفا أى مثلا أى حتى إذا تتابعوا واجتمعوا كلهم فيها ، قالت أخرى كل منهم وهم أتباعهم وسفلتهم لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء : ربنا هؤلاء أضلونا عن الحق باتباعنا لهم وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من أمر الدين وسائر أعمالنا ، فأعطهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم فى أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفين : ضعفا للضلال ، وضعفا للاضلال .

ومعنى قوله لأخراهم أى فى شأنهم ولأجل ضلالهم ، وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم ، لأنهم ما خاطبوهم، بل خاطبوا الله جلت قدرته بهذا الكلام .

(قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون) أى يقول الله تعالى لهم : لكل منهم ضعف من العذاب بإضلاله فوق عذابه على ضلاله ، ولكنكم لاتعلمون عذابهم ، فإن العذاب روحى ونفسى ، والأول أنكى وأشد ألما ، فالرئيس العزيز فى قومه إذا دخل السجن مع السفلة وأوشاب الناس لا يكون ألمه كألمهم ، وإن كان يشركهم فيما يأكلون ويشربون وفى جميع ما يعملون ، إذ يشعر بعذاب النفس وقهر الذل مما لايشعر به الآخرون ، وإن كانوا يظنون أن عقوبتهما واحدة فى ألمها كما هى فى صورتها .

ونحو الآية قوله فى الآية الأخرى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

(وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) أى إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا مع أن الذنب واحد وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضى له ، فذوقوا العذاب بكسبكم له مهما يكن سببه ، وقد جاء فى سورة الصافات : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٤١) .

شرح المفردات

المراد بالآيات هنا : الآيات الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة على وجود الله ووحدته ، والأدلة على النبوة والبعث يوم القيامة ، والجمل هو البعير البازل أى الذى طلع نابه ، وسمّ الخياط : ثقب الإبرة ، وأصل الإجرام : قطع الثمرة من الشجرة ، ثم استعمل فى كل إفساد كإفساد الفطرة بالكفر وما يترتب على ذلك من الخرافات والمعاصى ، والمهاد : الفراش ، والغواش : واحدها غاشية ، وهى ما يغشى الشىء أى يغطيه ويستره كاللحاف ونحوه .

المعنى الجملى

هذا من تتمة ما سلف من وعيد الكفار وجزاء المكذبين بالقرآن المستكبرين عن الإيمان ، بين به أنهم خالدون فى النار، وأنهم يلاقون فيها من الشدائد والأهوال مالا يدرك العقل حقيقة كنهه ، وأن هذا كفاء ظلمهم لأنفسهم واستكبارهم عن طاعة ربهم واتباع أوامره .

الإيضاح

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء) أى إن الذين كذبوا بأدلتنا ولم يتبعوا رسلنا وتكبروا عن التصديق بما جاءوا به ، وأنفوا من الانقياد لها ـ لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء ، ولا يصعد لهم فى حياتهم قول ولا عمل ، لأن أعمالهم خبيثة ، وإنما يرفع إلى الله الكلم الطيب والعمل الصالح كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

(ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط) العرب تضرب المثل لما لا يكون بنحو قولهم : لاأفعله حتى يشيب الغراب ، وحتى يبيضّ القار ، وحتى يدخل الجمل فى سمّ الخياط ، وهم يريدون بذلك أنهم لا يفعلونه أبدا ، والمراد هنا أن هؤلاء لا يدخلون الجنة بحال .

(وكذلك نجزى المجرمين) أى ومثل هـــذا الجزاء نجزى به كل من صار الإجرام وصفا لهم ـ لامَن أجرموا جرما بثورة غضب أو نزوة شهوة ثم لايلبثون أن يندموا على ما فرط منهم كما قال تعالى فى وصف المؤمنين : «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» وقال أيضا : « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) أى لهم من نار جهنم فرش من تحتهم ، ولهم من فوقهم منها لحف تغطيهم ، والمراد أنها محيطة بهم مطبقة عليهم كما قال :

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ » وقال : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » وقال : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وكذلك نجزى الظالمين) أى ومثل هذا الجزاء نجزى به الظالمين لأنفسهم وللناس، والآيتان تدلان على أن المجرمين والظالمين الراسخين فى صفتى الإجرام والظلم هم الكافرون كما قال : «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» والمؤمنون لايكونون كذلك بحال.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) .

شرح المفردات

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان حال السعة والسهولة ، لا حال الضيق والشدة ، والنزع : قلع الشيء من مكانه ، والغل : الحقد من عداوة أو حسد ، أورثتموها ، أى صارت إليكم بلا منازع كما يصير الميراث إلى أهله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه وعيد أهل الكفر والمعاصى ــ أردفه بوعد أهل الطاعات وقد جرت سنة القرآن بالجمع بينهما ، فيبدأ بأحدهما لمناسبة سياق الكلام قبله ثم يقفوه بالآخر .

الإيضاح

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ لانكلف نفسا إلا وسعها ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله وتنزيله وشرائع دينه وعملوا ما أمرهم به وتجنبوا ما نهاهم عنه ـ هم أهل الجنة دون سواهم ، وهم يخلدون فيها أبدا لايخرجون منها ولا يسلبون نعيمها .

ومعنى قوله : (لا نكلف نفسا إلا وسعها) أننا لا نفرض على المكلف إلا ما يكون فى وسعه ومالا يشق عليه أداؤه ولايضيق به ذرعا ـ وقد جاءت هذه الجملة أثناء الكلام للتنبيه إلى أن العمل الصالح الذى يوصل إلى الجنة سهل غير صعب ، وميسور لا عسر فيه ولا مشقة .

(ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ تجرى من تحتهم الأنهار) أى وأذهبنا ما كان فى قلوب هؤلاء الذين ذكرت صفتهم من حقد وضغن مما يكون عادة فى الدنيا ، فهم لا يدخلون الجنة وفى قلوبهم أدنى عداوة أو بغضاء مما يكون من أسباب تنغيص النعيم فيها ، حال كون الأنهار تجرى من تحتهم فيرونها وهم فى غرفات قصورهم تتدفق فى جنانها و بساتينها ، فيزدادون حبورا وسرورا لا تشوب صفاءهم شائبة كدر .

روى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم فى الدنيا ، فيدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غلّ » .

وروى عن قتادة أن عليا كرم الله وجهه قال : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا » .

(وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهـذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) أى وقالوا شاكرين لله بألسنتهم معبرين عن غبطتهم و بهجتهم : الحمد لله الذى هدانا

فى الدنيا للايمان الصحيح والعمل الصالح الذى كان جزاؤه هذا النعيم ، وما كان من شأننا ولا مقتضى فكرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله ومعونته لنا عليها ورحمته الخاصة بنا ــ إلى هدايته التى فطرنا عليها وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل .

(لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أى إنهم قالوا حين رأوا ماوعدهم به الرسل عيانا : لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وهــذا مصداق ماوعدنا به فى الدنيا على التوحيد وصالح العمل .

(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) أى ونادتهم الملائكة قائلة لهم : تلكم هى الجنة التى وعدتم بوراثتها جزاء صالح أعمالكم .

أخرج ابن جرير عن السدى قال : ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله فى الجنة والنار منزل مبين ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هــذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ، ثم يقال: يا أهل الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، فيقتسم أهل الجنة منازلهم .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

وفى الآية دلالة واضحة على أن الجنة تنال بالعمل ، وفى معناها آيات وأحاديث كثيرة .

أما حديث أبى هريرة الذى رواه الشيخان « لن يُدخِل أحدا عملُه الجنة ــ قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته » فيراد منه أن عمل الإنسان مهما كان عظيما فلا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله ، حين جعل هذا الجزاء العظيم على ذلك العمل القليل ، فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل

الله ورحمته ، ومن ثم قال بعده « فسددوا وقاربوا » أى لا تبالغوا ولا تغلوا فى دينكم ولا تتكلفوا من العمل مالا طاقة لكم به .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

الوعد خاص بما كان فى الخير ، أو يشمل الخير والشر وهو الصحيح ، والوعيد خاص بالشر أو السوء ، فتسمية ما كان لأهل النار وعدا إما من قبيل التهكم أو للمشاكلة ، والتأذين رفع الصوت بالإعلام بالشىء ، واللعنة الطرد والإبعاد مع الخزى والإهانة ، وصدّ عن الشىء : أعرض عنه ، وعوجا أى ذات عوج أى غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد ، والعوج (بفتح العين) مختص بالمرئيات (وبكسر العين) مختص بما ليس بمرئىّ كالرأى والقول ، والحجاب هو السور الذى بين الجنة والنار كما قال فى سورة الحديد : « فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » والأعراف واحدها عرف (بزنة قفل) وهو أعلى الشىء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك والفرس

والسحاب ، والسيا والسيمياء : العلامة ، وصرفت أى حولت ، والتلقاء : جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة يقال فلان تلقاء فلان إذا كان حذاءه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان — عقب ذلك ببيان بعض ما يكون بين الفريقين فريق أهل الجنة وفريق أهل السعير من المناظرة والحوار بعد استقرار كل منهما فى داره .

وفيها دليل على أن الدارين فى أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع إشراف أهل الجنة وهم فى أعلى عليين على أهل النار وهم فى هاوية الجحيم ، وأن بعضهم يخاطب بعضا بما يزيد أهل الجنة عرفانا بقيمة النعمة ، ويزيد أهل النار حسرة وشقاء على ما كان من التفريط فى جنب الله .

وهذا التخاطب لا يقتضى قرب المكان على ما هو معهود فى الدنيا ، فعالم الآخرة عالم تغلب فيه الروحانية على ظلمة الكثافة الجسدية ، فيمكن الإنسان أن يسمع من بعيد المسافات ، ويرى من أقاصى الجهات .

وإن ما جدّ الآن من المخترعات والآلات التى يتخاطب بها الناس من شاسع البلاد وتفصل بينهما ألوف الأميال إما بالإشارات الكتابية كالبرق — التلغراف اللاسلكى والسلكى — وإما بالكلام اللسانى كالمسرة — التليفون اللاسلكى والسلكى — ليقرّب هذا أتم التقريب ، ويزيدنا فهما له .

وقد تم لهم الآن أن يروا صورة المتكلم بالتليفون مطبوعة على الآلة التى بها الكلام وأن ينقلوا الصور من أقصى البلدان إلى أقصاها بهذه الآلة .

الإيضاح

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟) أى إن أصحاب الجنة حين استقرارهم فى الجنة واستقرار

أهل النار فى النار - إذا ما وجهوا أبصارهم إليهم يسألونهم سؤال افتخار على حسن حالهم، وسؤال تهكم وتذكير بجناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل ، وسؤال تقرير لهم بصدق مابلّغهم الرسل من وعد ربهم لمن آمن واتقى بجنات النعيم قائلين لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقا لاشبهة فيه ، وهانحن أولاء : نستمتع بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - فهل وجدتم ما أوعدكم ربكم من الخزى والنكال حقا ؟

(قالوا نعم) أى قد وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقا كما بُلغنا على ألسنة الرسل .

(فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) أى فكان ردف السؤال والجواب وقيام الحجة عليهم - أن أذن مؤذن قائلا : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم ، وهذا المؤذن إما مالك خازن النار ، وإما ملك غيره يأمره الله بذلك .

ثم بين المراد من الظالمين فقال :

(الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) أى إنهم هم الذين يعرضون عن سلوك سبيل الله الموصلة إلى مرضاته وثوابه ، ويمنعون الناس عن سلوكها ، ويبغونها معوجة حتى لايسلكها أحد .

وبغى الظالمين وطلبهم اعوجاج السبيل يجىء على ضروب شتى :

(١) تدسية أنفسهم بالظلم العظيم وهو الشرك فيشوبوا التوحيد بشوائب الوثنية فى العبادة والدعاء ويشركوا مع الله غيره على أنه شفيع عنده ووسيلة إليه ، وهو مانهى الله عنه بقوله : « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ » وقوله تعالى « حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » .

(٢) ظلمهم لها بالابتداع إذيبغونهاعوجا بما يزيدون فى الدين من البدع والمحدثات التى لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ومستندهم فى ذلك تأويلات جدلية ومحاولات

للتوفيق بين الدين والفلسفة فى الاعتقاديات ، أو زيادات فى العبادات والشعائر كحفل الموالد وترتيلات الجنائز وأذكار المآذن وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات من الرزق ، أو تحليل ما حرم الله كبناء المساجد على القبور و إيقاد المصابيح والشموع وغيرها عليها .

(٣) ظلمهم لها بالزندقة والنفاق إذ يبغونها عوجا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها .

(٤) ظلمهم لها فى الأحكام فيبغونها عوجا بترك الحق ، و إقامة ميزان العدل ، والمساواة بين الناس بالقسط .

(٥) ظلمهم لها بالغلوّ فيها بجعل يسرها عسرا وسعتها ضيقا بزيادتهم على ماشرعه الله من أحكام العبادات والمحظورات والمباحات ، مما نزل فى كتابه وصح من سنة رسوله .

(وهم بالآخرة كافرون) وهم على ضلالهم وإضلالهم كافرون بالآخرة كفرا متأصلا فى نفوسهم ، فلا يخافون عقابا على جُرْمهم ، ولا ذما ولوما على إنكارهم يوم البعث والجزاء .

والخلاصة ـ إنهم جمعوا بين الصد عن سبيل الله و بغيها عوجا ، و إنكار البعث والجزاء .

(و بينهما حجاب) أى و بين الفريقين فريقى أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل كلا منهما من الآخر و يمنعه من الاستطراق إليه .

وهذا الحجاب هو السور الذى سيأتى ذكره فى سورة الحديد بقوله : « يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » الآية .

(وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) أى وعلى أعالى ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار جميعا قبل الدخول فيها ، فيعرفون كلا منهما بسيماهم التى وصفهم الله بها فى نحو قوله : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » .

وهؤلاء الرجال هم طائفة من الموحدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس ، فبينما هم كذلك إذ يطلع عليهم ربهم فيقول : قوموا ادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم ، أخرجه أبو الشيخ والبيهقى وغيرهما عن حذيفة ، وفى رواية عنه :

يجمع الله الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا ننتظر أمرك فيقال : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم و بين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتى ورحمتى .

(ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) أى ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة قائلين لهم : سلام عليكم ، وهذا السلام إما تحية ودعاء وإما إخبار بالسلامة من المكروه والنجاة من العذاب ، هذا إن كان قبل دخول الجنة ، فإن كان بعدها فهو تحية خالصة تدخل فى عموم قوله تعالى « لاَيَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا » .

(لم يدخلوها وهم يطمعون) أى نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها بعد وهم طامعون فى دخولها ، لما بدا لهم من يسر الحساب ، وقد جاء فى الآثار أن الناس يكونون فى الموقف بين الخوف والرجاء ، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها .

روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو نادى مناد يا أهل

الموقف ادخلوا النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون ذاك الرجل ، ولو نادى : ادخلوا الجنة إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون ذلك الرجل .

(وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) أى وكلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهـــل النار تضرعوا إلى الله تعالى ألا يجعلهم مثلهم ، والمقصود من الآية الإنذار والتخويف ليتبصر المرء فى عاقبة أمره ، فيفوز بالثواب المقيم فى جنات النعيم .

وفى التعبير بصرف الأبصار وتحويلها إيماء إلى أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، ويكرهون رؤية أهل النار ، فإذا حولت أبصارهم إليهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها ، قالوا ربنا لاتجعلنا معهم حيث يكونون ، وفى ذلك من استعظام حال الظالمين ، واستقطاع مآلهم وشناعة أمرهم ما لايخفى .

وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «يحاسب الله الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » الآيتين ، ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح . ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ، ثم عرض أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا : سلام عليكم ، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من منازلهم . قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا ، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون « قَالُوا رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان فى أيديهم فلم ينزع من أيديهم ، فهنالك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) فكان الطمع دخولا » .

قال سعيد : فقال ابن مسعود . على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم قال : هلك من غلب وُحْدانه أعشاره . اه .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

الإيضاح

(ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) هذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين كانوا يعتزون فى الدنيا بغناهم وقوتهم، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم أو لحرمانهم من عصبية تمنعهم وتذود عنهم ، ويزعمون أن من أغناه الله وجعله قويا فى الدنيا فهو الذى يكون له نعيم الآخرة كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

ومن هؤلاء زعماء قريش وطغاتها الذين قاوموا الإسلام فى مكة واضطهدوا أهله كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .

والسيما التى يعرفونهم بها هى سواد الوجوه وزرقة العيون وتشويه الخلْق ؛ واختار أبو مسلم أنهم يعرفونهم بسيماهم الخاصة التى كانوا عليها فى الدنيا ، وقيل بسيما

المستكبرين ؛ إذ قد جاء فى الأثر ما يدل على أن لمن تغلب عليهم رذيلة خاصة ــ علامة تدل عليهم يُعرفون بها ؛ فقد روى البخارى « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيعرفه فيشفع له ، فلا تقبل شفاعته ، ثم يمسخه الله ذئبا منتنا ليزول عن إبراهيم خزيه » فمسخه ذئبا مناسب لحماقته ونتن الشرك .

والخلاصة ــ إنهم نادوهم قائلين لهم : ما أغنى عنكم جمعكم للمال ولا استكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان ، إذ لم يمنع عنكم العقاب ، ولا أفادكم شيئا من الثواب .

ثم وجه إليهم سؤال توبيخ وتأنيب بحضرة هؤلاء المستضعفين فقيل لهم :

(أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟) أى وقالوا لهم مع الإشارة إلى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم ويعذبونهم فى الدنيا كصهيب الرومى وبلال الحبشى وآل ياسر ، والتهكم من خزيهم وفوز من كانوا يحتقرونهم : أهؤلاء الذين حلفتم فى الدنيا إن رحمة الله لن تنالهم ؟ إذ لم يعطوا فى الدنيا مثل ما أعطيتم من الأتباع والأشياع وكثرة المال .

(ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) أى وقال الله تعالى لأصحاب الأعراف بعد أن يحبسوا على الأعراف ، وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا مايقولون : ادخلوا الجنة لاخوف عليكم مما يكون فى مستقبل أمركم، ولا أنتم تحزنون مما ينغص عليكم حاضركم .

وفائدة هذه المقالة بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن أحدا لايسبق عند الله إلا بسبقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ، وليعرفوا أن كل أحد يعرف فى ذلك اليوم بسيماه التى يوسم بها ، سواء أكان من أهل الخير أم من أهل الشر ، فيزيد المحسن فى إحسانه ويرتدع المسىء عن إساءته ، وليعلموا أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقل الناس عملا .

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مقال أهل الجنة لأهل النار ومقال أصحاب الأعراف لأهل النار ــ أردف ذلك بمقال أهل النار لأهل الجنة وطلبهم منهم بعض ما عندهم من نعم الله عليهم .

الإيضاح

(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) إفاضة الماء: صبه، ثم استعملت فى الشيء الكثير فيقال : فاض الرزق والخير ، وأفاض عليه النعم ، وقالوا أعطاه غيضا من فيض أى قليلا من كثير ، وما رزقهم الله يشمل الطعام والأشربة غير الماء .

والمعنى ــ أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة ويطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التى يتمتعون بها من شراب وطعام .

وعن ابن عباس ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى أغثنى فإنى قد احترقت فأفض علىّ من الماء ، فيقال : أجبه فيقول : إن الله حرمهما على الكافرين .

وعن أبى الدرداء إن الله يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم فيستغيثون فيغاثون بالضريع (نبات رطبه يسمى شِبْرِقا ، ويابسه يسمى ضريعا لاتقربه دابة لنتن ريحه) لايسمن ولا يغنى من جوع ، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام

ذى غصة ، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلاليب الحديد فيقطع ما فى بطونهم ويستغيثون إلى أهل الجنة ، فيقول أهل الجنة : إن الله حرمهما على الكافرين .

وهذا طلب منهم مع علمهم باليأس من إجابته ، إذ هم يعرفون دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم أبدا ، ولكن اليائس من الشيء قد يطلبه كما قالوا فى أمثالهم (الغريق يتعلق بالزبد) .

(قالوا إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا) التحريم المنع وهو إما تحريم تكليف كتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وإما تحريم قهر كتحريم الجنة ومافيها على الكافرين فى مثل هذه الآية .

والمعنى — إن أهل الجنة قالوا جوابا عن هذا الاستجداء : إن الله قد حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين ، كما حرم عليهم دخولها ، فلا سبيل لإفاضة شيء منهما عليهم وهم فى النار ، إذ ليس لهم إلا ماؤها الحميم ، وطعامها من الضريع والزقوم .

وقد وصف أهل الجنة الكافرين بأنهم هم الذين كانوا السبب فى هذا المنع والحرمان ، إذ جعلوا دينهم أعمالا لا تزكى الأنفس ولا تجعلها أهلا للتشريف والكرامة ، بل هى إما لهو يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة ، وإما لعب لا يقصد منه فائدة صحيحة فهو كأعمال الأطفال ، وقد غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها ولذاتها من الحرام والحلال ، أما أهل الجنة فقد سعوا لها سعيها ، وعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ومن ثم لم يكن من قصدهم من التمتع بنعم الله إلا الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق والعدل ، والاستعداد لحياة أبدية لا نهاية لها .

والخلاصة — إن الدنيا شغلتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها الباطلة ، فغرّتهم وضرّتهم ، وهى من شأنها أن تغرّ وتضر وتُمِرّ .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى فاليوم نعاملهم معاملة الشيء

المنسى الذى لا يبحث عنه أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، والمراد من النسيان عدم إجابة دعائهم وتركهم فى النار .

(وما كانوا بآياتنا يجحدون) أى وكما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله إنكارا مستمرا ، ورفضوا ما جاءت به رسله ظلما وعلوا .

والخلاصة — فاليوم نتركهم فى العذاب كما تركوا العمل فى الدنيا للقاء الله يوم القيامة ، وكما كانوا بآيات الله وحججه التى احتج بها عليهم الأنبياء والرسل يجحدون ولا يصدقون بشىء منها .

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) .

تفسير المفردات

الكتاب هو القرآن الكريم ، والتفصيل جعل المسائل المراد بيانها مفصولا بعضها من بعض بما يزيل اشتباهها ، وينظرون أى ينتظرون ، وتأويله أى عاقبته ، والحق هو الأمر الثابت ، والخسران : الغبن ، وضل عنهم ، أى غاب عنهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف وذكر الحوار الذى كان بين هذه الفرق الثلاثة على وجه يحمل الناظر فيها على الحذر والاحتراس والتأمل

فى العواقب لعله يرعوى عن غيه ويهتدى إلى سبيل رشده ، عقب ذلك بذكر حال الكتاب الكريم وعظيم فضله وجليل منفعته ، وأنه حجة الله على البشر كافة ، وأنه أزاح به علل الكفار وأبطل معاذيرهم ، ثم بذكر حال لمكذبين وما يكون منهم يوم القيامة من الندم والحسرة وتمنى العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم .

الإيضاح

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى ولقد جئنا هؤلاء القوم بكتاب كامل البيان وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل ، تزكية لنفوسهم وتطهيرا لقلوبهم ، وجعلناه سبب سعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، وهدى ورحمة لمن يؤمن به إيمانا يبعثه على العمل بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه .

انظر إليه تجده قد أوضح أصول الدين العامة بما لا يطلب معه زيادة لمستزيد ، فنعى على المقلدين الأخذ بآراء من تقدمهم من آبائهم ورؤسائهم دون بحث ولا تمحيص فى مثل قوله « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » . وكرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين ، وحث على النظر والاستدلال والاعتماد على البرهان فى مثل قوله « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وبهذا كان الإسلام دين العقل والفطرة وينبوع الهدى والحكمة والرحمة .

وحين وجد الناس افتتنوا فى الشرك ، وفرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية . فظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الكون — كاف فى الإيمان ولا يضر التوجه إلى غيره من المقربين بالدعاء وطلب ما يعجز المرء عن نيله من طريق الأسباب، ظنا منهم أن التوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه — أبطل هذه الشبهات . وأزال

هذه التعلات و بسط ذلك كل البسط . وأطنب فيه أيمـا إطناب . إلى نحو ذلك من مسائل تبصّر المرء فى دينه ودنياه . وتعرّفه مبدأه ومنتهاه .

(هل ينظرون إلا تأويله) أى هل ينتظرون إلا عاقبة ما وعدوا به على ألسنة الرسل من الثواب والعقاب، أى ليس أمامهم شىء ينتظرونه فى أمره إلا وقوع تأويله وهو وقوع ما أخبر به من أمر الغيب الذى يقع فى المستقبل فى الدنيا ثم فى الآخرة ممـا وعد به المؤمنين من نصر وثواب ، والـكافرين من خذلان وعقاب .

روى عن الربيع بن أنس أنه قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ .

(يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى يأتى تأويله ونهايته يوم القيامة وتزول كل شبهة ، فيقول الذين نسوه من قبل أى تركوه وجعلوه كالشىء المنسى وأعرضوا عنه فلم يهتدوا به : قد جاءت رسل ربنا بالحق أى قد تبين أنهم قد جاءوا بمـا هو متحقق ثابت ، فتمارينا فيه وأعرضنا عنه حتى حق علينا الجزاء .

ثم ذكر حالهم فى ذلك اليوم وبيّنهم على النجاة فيتمنون إما شفاعة الشافعين أو رجوعهم إلى الدنيا ليصلحوا أعمالهم .

(فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) أى إنهم يتمنون الخلاص بكل وسيلة ممكنة ، إما بشفاعة الشفعاء وإما بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا فيها غير ما كانوا يعملون فى حياتهم الأولى فيكونوا أهلا لمرضاة ربهم .

وإنما تمنوا الشفعاء وتساءلوا عنهم ، من حيث كان من أسس الشرك أن النجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفعاء ، وعند ما يستبين لهم الحق الذى جاءت به الرسل وهو أن النجاة إنما تكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح يتمنون لو يردون إلى الدنيا ليعملوا بما أمرهم به الرسل .

(قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى هم قد غبنوا أنفسهم حظوظها وباعوا نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل ، ويومئذ يغيب

عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء ومقالاتهم التي كانو يقولونها كقولهم في معبوداتهم (هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) .

وخلاصة ذلك — إنهم قد خسروا أنفسهم بتدنيسها بالشرك والمعاصى وعدم تزكيتها بالفضائل والأعمال الصالحة ، فخسروا حظوظهم فيها .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) .

شرح المفردات

الرب: هو السيد والمالك والمدبر والمربى ، والإله: هو المعبود الذى يدعى لكشف الضر أو جلب النفع و يتقرب إليه بالأقوال والأعمال التى يرجى أن ترضيه ، والله: اسم لخالق الخلق أجمعين ، ولا يثبت الموحدون ربا سواه ، وأكثر المشركين يقولون إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة ، وكان مشركو العرب لا يثبتون ربا سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ، والسموات والأرض : يراد بهما العالم العلوى والعالم السفلى ، واليوم: الزمن الذى يمتاز عن غيره بما يحدث فيه كامتياز اليوم المعروف بما يحده من النور والظلام ، وامتياز أيام العرب بما كان يقع فيها من الحرب والخصام، وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض وهى التى مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة ، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يعدّ خلقها بأيام منها، ولأن الله تعالى يقول « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » ويقول فى وصف يوم القيامة « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » والعرش لغة : كل

شىء له سقف ، و يطلق على هودج للمرأة يشبه عريش الكرم ، وعلى سرير الملك وكرسيه فى مجلس الحكم والتدبير ، والاستواء لغة: استقامة الشىء واعتداله ، واستوى الملك على عرشه أى ملك ، وثل عرشه أى هلك ، وغشى الشىء الشىء : ستره وغطاه ، وأغشاه إياه : جعله يغشاه أى يغطيه و يستره ، ومنه إغشاء الليل النهار ، وحثيثا أى مسرعا ، من قولهم فرس حثيث السير أى سريعه ، بأمره أى بتدبيره وتصرفه، مسخرات أى مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته ؛ والخلق : التقدير والمراد هنا الإيجاد بقدر ؛ تبارك الله : تعاظمت بركاته ؛ والبركة : الخير الكثير الثابت .

المعنى الجملى

علمت مما سلف من قبل أن الأسس التى عنى القرآن الكريم بشأنها هى التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر ، و إثبات المعاد موقوف على إثبات الوحدانية لله والعلم الشامل والقدرة التامة .

ولما بسط القول فيما سلف فى أمر المعاد و بين فئات الناس فى ذلك اليوم ومايدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة — قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين و بيان مقدوراته تعالى وعظيم مصنوعاته لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لامعبود سواه .

الإيضاح

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) يخاطب سبحانه الناس كافة بأن ربكم واحد ؛ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ودبر أمورهما فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، إذ لا إله لكم غيره .

وقد جاء فى معنى الآية قوله فى سورة حٰم السجدة : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ

فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » وقوله فى سورة الأنبياء . « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ » .

وبالتأمل فى هذه الآيات نستخلص منها الأمور الآتية :

(١) إن المادة التى خلقت منها السموات والأرض كانت دخانا أى مثل الدخان.

(٢) إن هذه المادة الدخانية كانت واحدة ثم فتق الله رتقها أى التئامها بأن فصل بعضها من بعض ، فخلق منها هذه الأرض والسموات السبع .

(٣) إن خلق الأرض كان فى يومين ، وأن تكوّن اليابسة والجبال الرواسى فيها وأنواع النبات والحيوان كان فى يومين آخرين تتمة أيام أربع .

(٤) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية خلقت من الماء .

(٥) إن اليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الزمن الذى كانت فيه كالدخان حين فتقت من رتق المادة العامة التى خلق منها كل شىء سواء أكان ذلك بواسطة أم بدونها .

(٦) إن اليوم الثانى هو الزمن الذى كانت فيه مائية بعد أن كانت بخارية أو دخانية .

(٧) إن اليوم الثالث هو الزمن الذى تكونت فيه اليابسة ونتأت منها الرواسى فتماسكت بها .

(٨) إن اليوم الرابع هو الزمن الذى ظهرت فيه أجناس الأحياء من الماء وهى النبات والحيوان .

(٩) إن السماء ـ العالم العلوى بالنسبة إلى أهل الأرض ـ قد سويت أجرامها من مادتها الدخانية فى يومين آخرين أى زمنين شبيهين بالزمنين اللذين خلق فيهما جرم الأرض .

وما استنبط من هذه الآيات يوافق ما أقره علماء الفلك فى العصر الحديث، فقد قالوا: إن المادة التى خلقت منها الأجرام السماوية وخلقت منها الأرض كانت سديما ، وكانت واحدة رتقا ثم انفصل بعضها من بعض، وكانت مؤلفة من أجزاء دقيقة متحركة تجمّع بعضها إلى بعض بمقتضى قانون الجاذبية فتكوّن منها كرة عظيمة تدور على محورها واشتعلت من شدة الحركة فكانت ضياء ونورا تصحبه حرارة شديدة ، وهذه الكرة العظيمة فى عالمنا هى التى تسميها بالشمس والكواكب الدرارى التابعة لها فيما نرى ونشاهد ومنها أرضنا ، انفتقت من رتقها وانفصلت من جرمها وكانت مشتعلة مثلها وتدور على محاورها .

ثم إن الأرض تحولت من طور الغازية المشتعلة إلى طور المائية بنظام مقدر فى أزمنة طويلة ، إذ كان الأوكسجين والإيدروجين وهما العنصران اللذان يتكون منهما الماء يرتفعان فى الجو لخفتهما فيبردان فيكونان بخارا فماء وما زال أمرها كذلك حتى غلب عليها طور المائية .

ثم تكونت اليابسة فى هذا الماء بسبب حركة أجزاء المادة وتجمع بعضها مع بعض بنسب ومقادير مختلفة ، ثم تولدت فيها المعادن على أنواع شتى ، وما زالت تبرد قشرتها الظاهرة وتجف شيئا فشيئا حتى صلحت لتولد النبات والحيوان فوجدت فيها الأحياء النباتية ثم الحيوانية .

ولا شك أن هذه الأقوال إن صحت كانت بيانا لما أجمل فى الكتاب الكريم وإن لم تصح فالقرآن لا يناقض شيئا منها ، ولكنها أقرب النظريات إلى سنن الكون وصفة عناصره البسيطة وحركتها ، وتعتبر تفصيلا لخلق العالم أطوارا بسنن ثابتة وتقدير منظم .

وقد أرشد الكتاب الكريم إلى مثل هذه الحقائق فى نحو قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وقوله حكاية عن رسوله نوح صلى الله عليه وسلم مخاطبا قومه : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا . وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ؟ ».

فهذه الحقائق العلمية التى بينها القرآن ولم يكن أحد من المخاطبين فى عصر التنزيل يعرفها — من أكبر الأدلة على إعجازه وأنه من كلام العليم الخبير بكل شىء لا من كلام البشر .

وهذا النظام والتدريج فى الخلق من الدلائل على الإرادة والاختيار والحكمة ووحدانية الخالق ، فإن ما لا نظام فيه قد يظن أن وجوده أمر اتفاقى أو من فعل الكثير لا من فعل الواحد ، فإنك ترى الفرق واضحا بين كومة من الحصى تراها فى الصحراء و بين حصن شيد فيه جميع العُدد والآلات المعدة للقتال .

وما ورد فى الأخبار مما يدل على أن هذه الأيام الستة هى من أيام دنيانا كحديث أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء و بث فيها الرواسى يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فهو من الإسرائيليات التى لم يصح فيها حديث مرفوع — إلى أن هذا الحديث مردود من جهة متنه لمخالفته لنص كتاب الله ، ومن جهة سنده لأنه مروى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وقد اختلط عقله فى آخر عمره ، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد الحديث فى تفسيره : وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قال : « فى ستة أيام » ولهذا تكلم البخارى

وغير واحد من الحفاظ فيه وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا اهـ .

(ثم استوى على العرش) أي إنه تعالى قد استوى على عرشه بعد تكوين هذا الملك يدبر أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره الذي اقتضته حكمته .

وفي معنى الآية قوله في سورة يونس : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » .

واستواؤه تعالى على العرش : هو استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقة ذلك التدبير ولا معرفة صفته ولا كيف يكون ، فالصحابة رضوان الله عليهم والأئمة من بعدهم لم يشتبه أحد منهم فيه ، وقد أثر عن ربيعة شيخ الإمام مالك أنه سئل عن قوله : « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » كيف استوى ؟ فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق .

وقال الحافظ ابن كثير : مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث ابن سعد والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه . وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله — تشبيه ، فمن أثبت ماوردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ .

(يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) أي إنه تعالى جعل الليل وهو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض أي يتبعه ويغلب على المكان الذي كان فيه

ويستره حال كون الطلب حثيثا أى بسرعة ، والمراد أنه يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شىء .

ويظهر ذلك الطلب السريع أتم الظهور بما أثبته العلم حديثا من كروية الأرض وأنها تدور على محورها حول الشمس ، فيكون نصفها مضيئا بنورها دائما ونصفها الآخر مظلما دائما ، وقد قال بهذا القول كثير من علماء الإسلام كالغزالى والرازى وابن تيمية وابن القيم وغيرهم .

وهذه الجملة كالدليل على ما قبلها ، فإنه بعد أن أخبر عباده باستوائه على العرش وتدبيره لجميع المخلوقات ـ أراهم ذلك عيانا فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر وتزول الشبه ـ إلى مافى تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة ، إذ بتعاقبهما يتم أمر الحياة وتكمل المنفعة والمصلحة .

(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى وخلق هذه الأشياء حال كونها مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لحكمه .

(ألا له الخلق والأمر) أى ألا إن لله الخلق، فهو الخالق المالك لذوات المخلوقات وله فيها الأمر أى التصرف والتدبير ، إذ هو المالك لها لا شريك له فى ملكه .

ومن هذا التدبير ما سخر له الملائكة من نظام العالم وتنفيذ سننه فى خلقه ، كما جاء فى قوله : « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً » ومن ذلك الوحى الذى ينزل به الملائكة على الرسل كما جاء فى قوله : « اللّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » .

وفى معنى الآية قوله : « إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ » وقوله : « فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِىِّ الْكَبِيرِ » وقوله : « لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » وجاءت هذه الجملة توكيدا لما قبلها لبيان أنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى دبرهما وصرّفهما على حسب إرادته .

(تبارك الله رب العالمين) أى تعالى الله بوحدانيته وألوهيته ، وتعظم بالتفرد بربوبيته ، وأن كل مافى هذا العالم من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة فهو منه ، فيجب على عباده أن يشكروه عليها ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه وليس له من الخلق ولا من الأمر شىء .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) .

شرح المفردات

التضرع : التذلل ، وهو إظهار ذل النفس من قولهم ضرَع فلان لفلان وتضرع له : إذا أظهر الذل فى معرض السؤال ، والخفية : ضد العلانية من أخفيت الشىء أى سترته ، والاعتداء : تجاوز الحدود ، ومحبة الله للعمل : ثوابه عليه ، وللعامل رضاه عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على توحيد الربوبية — قفى على ذلك بالأمر بتوحيد الإلهية بإفراده تعالى بالعبادة ، وروحها ومخها الدعاء والتضرع له .

الإيضاح

(ادعوا ربكم تضرعا وخفية) أى ادعوا ربكم متولى أموركم حال كونكم متضرعين مبتهلين إليه مخفين دعاءكم .

وفى هذا إيماء إلى أن الدعاء فى الخفية إن لم يكن واجبا فهو مندوب على الأقل ، ويدل على ذلك وجوه :

(١) إنه تعالى أثنى على زكريا فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » أى إنه أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه .

(٢) روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل النـاس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس أرْبِعُوا على أنفسكم فإنـكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنـكم تدعون سميعاً قريبا وهو معكم » رواه مسلم .

(٣) روى أنه عليـــه السلام قال : « دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى » .

(٤) روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل لقــد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الـكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » اهـ .

(٥) إن النفس شديدة الرغبة فى الرياء والسمعة ، فإذا رفع صوته بالدعاء امتزج الرياء به ، فلا يبقى فيه فائدة البتة ، ومن ثم كان الأولى الإخفاء ليبقى مصونا عن الرياء .

وفصل بعض العلمـاء فقال : إن التضرع بالجهر المعتدل يحسن فى حال الخلوة والأمن من رؤية الناس للداعى ومن سماعهم لصوته ، فلا جهره يؤذيهم ، ولا الفكر فيهم يشغله عن التوجه إلى الرب وحده ، أو يفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة ، ويحسن الإسرار فى حال اجتماع الناس فى المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية فى الحج وتكبير العيدين .

وإذ كان الليل سترا ولباسا شرع فيه الجهر فى قراءة الصلاة - إلى أنه يطرد الوسواس، ويقاوم فتور النعاس، ويعين على تدبر القرآن، وبكاء الخشوع للرحمن لدى المتهجدين فى خلواتهم .

(إنه لا يحب المعتدين) أى المتجاوزين ما أمروا به ، ونحو الآية قوله : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

وللاعتداء فى الدعاء مظاهر شتى .

(١) اعتداء خاص بالألفاظ كالمبالغة فى رفع الصوت والتكلف فى صيغ الدعاء .

(٢) اعتداء خاص بالمعنى وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصى ومقاصدها كضرر العباد وطلب إبطال سنن الله فى الخلق ، أو تبديلها كطلب النصر على الأعداء مع ترك وسائله كأنواع السلاح والعتد ، وطلب الغنى بلا كسب ، وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب مع أن الله يقول « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا. وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا » .

(٣) اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله ليشفع له عنده ، وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا » ومن طلب ذلك من غير الله فقد اتخذه إلها ، لأن الإله هو المعبود كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء هو العبادة » وروى الترمذى عن أنس مرفوعا « الدعاء مخ العبادة » وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال : القرب من الله عز وجل ، ثم قرأ « يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ » وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه الله على لسان رسوله دون غيره .

وقد جاءت آيات كثيرة فى الإنكار على المشركين دعاء غير الله وكونه عبادة له وشركا بالله ، ولكن مدعى العلم الذين يتقولون على الله : يقولون لا بأس بدعاء

الأولياء والصالحين عند قبورهم والتضرع والخشوع لهم ، ويكون توسلا بهم إلى الله ليقربوهم منه بشفاعتهم ، لا عبادة لهم .

وقد علمت أن التوسل إنما هو التقرب إلى الله بما يرضيه و بما شرعه من عبادته دون غيرها ، وآيات الكتاب الكريم صريحة فى ذلك .

نعم إن طلب الدعاء من المؤمنين مشروع من الأحياء لا من الأموات ، و يسمى ذلك توسلا لأنه قد شرعه الله كما توسل عمر والصحابة بالعباس بصلاة الاستسقاء وما بعدها من الدعاء .

وما ذم الله المشركين إلا لأنهم أشركوا مع الله غيره فى الدعاء ، وهم كانوا يؤمنون بالله و بعضهم كان يؤمن باليوم الآخر ، ولكن طرأ عليهم الشرك الذى أحبط أعمالهم ، وهكذا يحبط إيمان من أشرك من المسلمين بدعاء غير الله .

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أى ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاح الله لها بما خلق فيها من المنافع وما هدى الناس إليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم وامتنانه بذلك فى مثل قوله « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

وهذا الإفساد شامل لإفساد النفوس بالقتل وقطع الأعضاء ، و إفساد الأموال بالغصب والسرقة ، و إفساد الأديان بالكفر والمعاصى ، و إفساد الأنساب بالإقدام على الزنا ، و إفساد العقول بشرب المسكر ونحوه .

والخلاصة — إن الإفساد شامل لإفساد العقول والعقائد والآداب الشخصية والاجتماعية والمعايش والمرافق من زراعة وصناعة وتجارة ووسائل تعاون بين الناس .

و إصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين و إرسال الرسل . وتم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى كان رحمة للعالمين ، فيه أصلحت عقائد البشر ، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد ، وما شرع لهم

من التعاون والتراحم ، وبما حفظ لهم من العدل والمساواة ، وبما شرع لهم من الشورى المقيدة بقاعدة درء المفاسد وحفظ المصالح . وبذا امتاز دينهم عن بقية الأديان .

انظر إلى الأمم ذوات الحضارة والمدنية ترها أصلحت كل شيء من معدن ونبات وحيوان ، ولكنها عجزت عن إصلاح نفس الإنسان ، ومن ثم تحول كل ما هدوا إليه من وسائل العمران إلى إفساد نوع الإنسان ، وتعادت الشعوب وتنازعت على الملك والسلطان ، وأباحت الكفر والعصيان وبذل الثروة فى سبيل التنكيل بالخصوم والجناية على الأعداء ولو بالجناية على أنفسهم . وما الحروب القائمة فى مشارق الأرض ومغاربها بين الدول الكبرى والتى أكلت الحرث والنسل وأزهقت أرواح الملايين من الناس بين حين وآخر إلا شاهد صدق على ما نقول .

وبعد أن بين فى الآية الأولى شرط الدعاء أعاد الأمر به إيذانا بأن من لا يعرف أنه محتاج إلى رحمة ربه مفتقر إليها ، ولا يدعوا ربه تضرعا وخفية ولا يخاف من عقابه ولا يطمع فى غفرانه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح فقال :

(وادعوه خوفا وطمعا) الخوف توقع مكروه يحصل بعد ، والطمع توقع محبوب يحصل كذلك أى ادعوه خائفين من عقابه على مخالفتكم لشرعه المصلح لأنفسكم وأجسامكم ، طامعين فى رحمته وإحسانه فى دنياكم وآخرتكم .

ودعاء المولى حين الشعور بالعجز والافتقار إليه مما يقوى الأمل بالإجابة ويحول بينها وبين اليأس إذا تقطعت الأسباب وجهلت وسائل النجاح .

والدعاء مخ العبادة ولبها ، وإجابته مرجوة متى استكملت شرائطها وآدابها ، فإن لم تكن بإعطاء الداعى ما طلبه فربما كانت بما يعلم الله أنه خير له منه .

ثم بين فائدة الدعاء وعلل سبب طلبه فقال :

(إن رحمة الله قريب من المحسنين) أى إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم ، لأن الجزاء من جنس العمل كما قال «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ».

فمن أحسن فى عبادته نال حسن الثواب ، ومن أحسن فى الدعاء أعطى خيرا مما طلبه ، أو مثل ماطلبه .

وقد طلب الله الإحسان فى كل شيء يهدى إليه دين الفطرة ، وحرم الإساءة فى كل شيء وجعل جزاءها من جنسها كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه مسلم . ومن هذا تعلم أنه طلب الإحسان إلى الحيوان والرفق به حين ذبحه حتى لا يتعذب ، كما حرم أكل الموقوذة وهى التى تضرب بغير محدد حتى تنحل قواها وتموت .

وطلب الإحسان فى قتال الأعداء ، لأنه فى حكم الضرورات التى تقدر بقدرها ويتقى ما يمكن الاستغناء عنه كما قال « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

فقد طلب إلينا فى هذه الآية أن نضرب رقاب الأعداء حين قتالهم . لأنه أسرع إلى قتلهم وأبعد عن تعذيبهم بمثل ضرب الرءوس وتقطيع الأعضاء ، حتى إذا ظهر لنا عليهم الغلب بالإثخان فيهم أمرنا بترك القتل وأن نعمد إلى الأسر وبعد ذلك إما أن نمن على الأسرى بالعتق ، أو نفاديهم بمن أسر منا .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ

الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) .

شرح المفردات

الريح: الهواء المتحرك . والرياح عند العرب أربع على حسب مهابها من الجهات الأربع : الشمال والجنوب، وسميا كذلك باسم الجهة التى يهبان منها والصَّبا أوالقبول ، وهى الشرقية وقد ينسبونها إلى نجد كما ينسبون الجنوب إلى اليمن والشمال إلى الشام والدَّبور ، وهى الغربية . والريح التى تنحرف عن الجهات الأصلية فتكون بين اثنتين منها تسمى النكباء .

قال الراغب : كل موضع ذكر الله فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة ، وفى الخبر « إنه صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه حين هبوب الرياح ويقول: اللهم اجعلها لنا رياحا ولا تجعلها ريحا ، اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك . وعافنا قبل ذلك » و بشْرا : مخفف بُشُرًا واحدها بشير : كغُدُر جمع غدير . والرحمة : هنا المطر ، وأقلت : رفعت ؛ قال فى المصباح : كل شىء حملته فقد أقللته ، والسحاب: الغيم واحده سحابة ، والثقال منه: المشبعة ببخار الماء ، وسقناه: سيرناه ، والبلد والبلدة : الموضع من الأرض عامرا كان أو خلاء ، و بلد ميت : أرض لا نبات فيها ولا مرعى ، والثمرات واحدها ثمرة ، والثمرة واحدة الثمر: وهو الحمل الذى تخرجه الشجرة سواء أكل أولا، فيقال ثمر الأراك وثمر النخل والعنب ، والنكد كل شىء خرج إلى طالبه بتعسر يقال رجل نكد (بفتح الكاف وكسرها) وناقة نكداء : خفيفة الدر صعبة الحلب ، والتصريف : تبديل الشىء من حال إلى حال ، ومنه تصريف الرياح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه تفرده بالملك والملكوت وتصرفه فى العالم العلوى والسفلى وتدبيره الأمر وحده ، وطلب إلينا أن ندعوه متضرعين خفية وجهرا ، ونهانا عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، وأبان لنا أن رحمته قريب من المحسنين ـ قفى على ذلك بذكر بعض ضروب من رحمته ، إذ أرسل إلينا الرياح وما فيها من منافع للناس، فبها ينزل المطر الذى هو مصدر الرزق وسبب حياة كل حى فى هذه الأرض ، وفى ذلك عظيم الدلالة على قدرته تعالى على البعث والنشور .

الإيضاح

(وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) أى إن ربكم المدبر لأمور الخلق ، هو الذى يرسل الرياح بين يدى رحمته : أى بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها، فينشئ بها سحابا ثقالا لكثرة مافيها من الماء . حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء ساقها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعه ، ودرست مشاربه ، وأجدب أهله .

ونحو الآية قوله : « وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ » .

(فأنزلنا به الماء) أى فأنزلنا بالسحاب الماء ، إذ قد ثبت أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة ، يرتفع فى الجو و يبرد لوصوله إلى منطقة باردة ، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد ، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء وتكوّن السحاب . فالسحاب ناشئ من تكاثف بخار الماء من الهواء فى الطبقات العالية من الجو ، وهو لايكون ثابتا فى مكان ، بل يسير فى اتجاه أفقى مدفوعا بقوة الريح ،

ويتراوح بعده عن الأرض بين ميل وعشرة أميال ، ويكون معتما مُشْبَعا بالماء إذا كان قريبا من سطح الأرض ، وهو الذى ينشأ عنه المطر لتجمع قطيرات الماء التى فيه بعضها مع بعض بتأثير البرودة ، فتتكون قطيرات كبيرة تسقط من خلاله نحو الأرض لثقلها على حسب سنة الله فى جاذبية الثقل كما قال تعالى فى سورة الروم : «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ ـ المطر ـ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » وفى سورة النور : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي ـ يسوق ـ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ـ مجتمعا ـ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » والمراد بالسماء السحاب ، إذ هى لغة : كل ماعلا الإنسان وأظله .

وقد أثبت العلم ودلت المشاهدة أن سكان الجبال الشامخة يبلغون فى العلو حذاء السحاب الممطر أو يتجاوزونه إلى ما فوقه فيكون دونهم كما شاهد ذلك بعض النازلين فى بعض الفنادق فى جنيف بسويسرا .

(فأخرجنا به من كل الثمرات) أى فأخرجنا بالماء أنواع الثمار على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها ، فتخرج كل أرض أنواعا مختلفة منها تدل على قدرة الله وعلمه ورحمته وفضله كما قال: « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وبعد أن ذكرهم بهذه الآيات قفى على ذلك بما يزيل إنكارهم للبعث فقال :

(كذلك نخرج الموتى) أى ومثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من الناس وغيرهم ، إذ القادر على هذا قادر على ذلك .

(لعلكم تذكرون) هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث بنحو قولكم « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولكم « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » وقولكم « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » .

فأمثال هذه المقالات الدالة على إنكار خروج الحى من الميت تزول إذا أنتم تذكرتم خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لا فارق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، فكل منهما خاضع لقدرة الإله القادر على كل شيء .

والحياة فى عرف المخاطبين كانت تعرف بالتغذى والنمو فى النبات والحس والحركة فى الحيوان .

وما يقوله علماء الطبيعة الآن من أن الحى لا يولد إلا من حى سواء فى ذلك الحيوان والنبات ، فالنبات الذى يخرج فى الأرض القفراء بعد سقيها بالماء لابد أن تكون له بذور فيها حياة كامنة لا تظهر إلا بالماء — فمثل هذه الحياة لم يكن معروفا عند واضعى اللغة ، على أنه لا ينفى صحة خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لولا تغذى البذور والجزور بمواد الأرض الميتة بسبب الماء لما نبتت .

والقرآن الكريم قد حدثنا بأن الأرض تفنى بتفرق مادتها ثم يعيدها الله كما بدأها فقال « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » فهذه الرجة هى التى سميت فى الآيات الأخرى بالقارعة والصاخة إذ ربما يقرعها كوكب ويصطدم بها فتتفتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق فى الجو المسمى بالسديم .

إعادة الموتى

جاء فى الكتاب الكريم قوله « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » وقوله : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » وقوله « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

فأثبت فى هؤلاء الآيات الإعادة وشبهها بالبدء ، وهو تشبيه فى جملة ذلك لا فى تفصيله ، فإنه كما خلق جسد الإنسان الأول خلقا ذاتيا مبتدأ ونفخ فيه الروح - يخلق أجسام أفراد الإنسان خلقا ذاتيا معادا ، ثم ينفخ فيها أرواحها التى كانت بها أناسىّ فى الحياة الدنيا ، فما الأجساد إلا كالسكن للأرواح .

وليس بالبعيد على خالق العالم كله أن يعيد أجساد ألوف الملايين دفعة واحدة ، ولا سيما بعد أن أثبت العلم أنه يمكن تحليل بعض المواد المؤلفة من عناصر مختلفة ، ثم إعادة تركيبها ،وقد كان لتقدم الإنسان فى العصر الحديث ومعرفته لكثير من ظواهر الكون أثر عظيم فى تعرفنا لكثير من أخبار عالم الغيب وسهولة إدراك العقول لها ، ومن ثم قال كثير من علماء العصر الحديث : ليس فى العالم شىء مستحيل .

ولا يراد بحشر الأجساد حشرها بأعيانها لأجل وقوع الجزاء عليها ، ألا ترى أن العلماء يقولون : إن الأجساد تتجدد فى قليل من السنين . ومع ذلك لا يعتقد أحد من القضاة أن العقاب يسقط عن الجانى بانحلال أجزاء بدنه التى زاول بها الجناية وتبدل غيرها بها ، فحقيقة الإنسان لا تتغير بهذا التبدل ، إذ ليس هذا إلا كتبدل الثياب ونحوها ، إذ المستحق للثواب والعقاب هو الروح ، لأن مبنى الطاعة والعصيان الإدراكات والإرادات والأفعال والحركات .

والخلاصة — إن الإنسان الحقيقى هو الذرة التى تحل فى القلب وفيها تحل الروح وتكسبها الحياة وتسرى منها إلى الهيكل الجسمانى ، فهذا الهيكل هو آلة قضاء أعمال تلك الذرة فى هذا الكون ، واكتساب العلوم والمعارف ، وهى مع الروح الحالّ فيها هما المخاطبان بالتكليف ، وهما المعادان والمنعمان والمعذبان إلى نحو ذلك .

وبعد أن ضرب الله إحياء البلاد بالمطر مثلا لبعث الموتى - ضرب اختلاف نتاج البلاد مثلا لما فى البشر من اختلاف الاستعداد لكل من الهدى والكفر والرشاد والغى فقال :

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا) قوله

والذى خبث أى والبلد الذى خبث لا يخرج نباته إلا نكدا ، وأصل النكد هو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير بخلا .

والمعنى — إن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التى يخرج نباتها بسهولة وينمى بسرعة ويكون كثير الغلة طيب الثمرة ، ومنها الخبيثة التربة كالحَرّة — الحجرية — والسبخة التى لا يخرج نباتها على قلته وخبثه إلا بعسر وصعوبة .

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر أى للبر والفاجر اهـ أى إنه تعالى شبههما بالأرض الخيّرة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، فالأرض الخيّرة يحصل فيها بنزول المطر أنواع الأزهار والثمار ، والأرض السبخة إن نزل عليها المطر لا تنبت من النبات إلا النذر القليل ، فكذلك الروح الطيب النقى من شوائب الجهل ورذائل الأخلاق إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع الطاعات والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيث الكدر وإن اتصل به نور القرآن لا يظهر فيه من المعارف وجميل الأخلاق إلا النذر القليل .

روى أحمد والشيخان والنسائى من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير ، وكان منها أجادب — التى لا تشرب ولا تنبت — أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقَوْا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان — أرض مستوية — لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم القسم الأول وهو الذى نفع وانتفع بالهادى والمهتدى ، وفسر القسم الثالث وهو الذى لم ينفع ولم ينتفع بالجاحد ، وسكت عن القسم الثانى وهو الذى نفع غيره بعلمه ولم ينتفع به هو ، لأن له أحوالا كثيرة فمنه المنافقون ومنه المفرّطون فى دينهم ، والمشاهدة تدل على أن الطيبى الأخلاق

يفعلون الخير والبر بلا تكلف ، وأن الخبيثين لا يفعلون الخير ولا يؤدون الواجب إلا نكدا بعد إلحاف أو إيذاء حين الطلب أو إدلاء إلى الحكام .

(كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) أى مثل ذلك التصريف البديع يردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ، ونكررها لقوم يشكرون نعمنا باستعمالها فيما تتم حكمتنا ، وبذا يستحقون منا المزيد ويكافئون بالثواب عليها .

وختم هذه الآية بالشكر ، إذ كان موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، والآية التى قبلها بالتذكر لما كان موضوعها الاعتبار والاستدلال .

قصص نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) .

شرح المفردات

اليوم هنا : يوم القيامة ، والملأ : أشراف القوم لأنهم يملئون العيون بهجة ورواء بتأنقهم فى زيهم وتجميل منظرهم ، والنصح : الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية

من شوائب المكر . والذكر : الموعظة ، وعلى رجل أى على لسانه ، منكم أى من جنسكم ، والفلك : السفينة ، وعمين واحدهم عم : وهو ذو العمى، أو هو خاص بعمى القلب والبصيرة ، والأعمى: أعمى البصر كما قال زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

المعنى الجملى

بعد أن ذكر — عظمت آلاؤه — مبدأ الإنسان ومعاده وأن مرده إلى الله فى يوم تجازى فيه كل نفس بما كسبت — قفى على ذلك بذكر قصص الأنبياء مع أممهم وإعراضهم عن دعوتهم ، ليبين للرسول أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس ببدع فى قومك ، بل سبق به أقوام كثيرون ، وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله لا يهمل أمر المبطلين ، بل يمهلهم ، وتكون العاقبة للمتقين ، ومن العظة والاعتبار بما حل بمن قبلهم من النكال والوبال كما قال « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

الإيضاح

(لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية من أهل مكة ومن جاورهم من العرب بأنه سبحانه أرسل نوحا إلى قومه منذرا لهم بأسه ومخوفهم سخطه ، على عبادتهم غيره ، وقد كانوا ينكرون الرسالة والوحى ، إذ ليس عندهم من علوم الرسل والأمم شىء إلا ما يتلقونه من اليهود والنصارى فى بلاد العرب والشام .

ونوح أول رسول أرسله الله إلى قومه المشركين كما هو رأى كثير من المحققين كما ثبت فى حديث الشفاعة وغيره .

(فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى فدعا من كفر منهم إلى

عبادة الله تعالى وحده ، إذ ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه فى عبادتهم بدعاء يطلبون به ما لايقدرون عليه بكسبهم ، فربهم هو الخالق لكل شىء و بيده ملكوت كل شىء، وهو الإله الحق الذى يجب أن تتوجه إليه القلوب بالدعاء وغيره .

ثم ذكر السبب فى الأمر بعبادته وحده ، وترك أدنى شوائب الشرك ، مثبتا للبعث والجزاء فقال :

(إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم شديد هوله وهو يوم البعث والجزاء إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به .

(قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين) أى قال له أشراف قومه : إنا لنراك فى ضلال بين عن الحق بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا وَدّ وسُوَاع و يغوث و يَعُوق ونسر وهم شفعاؤنا عند الله ووسيلتنا إليه ، فببركتهم يتقبل منا صالح أعمالنا ، و يعطينا سؤلنا ، لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى ، ونحن لا نستطيع أن نوجه إليه دعواتنا دون وساطتهم ، لما نجترحه من السيئات التى تبعدنا عن حظيرة ذلك القدس الأعظم .

وخلاصة مقالهم — أنت فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، فجعلتك لا تجد إلى الصواب سبيلا .

(قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أى قال نوح مجيبا لهم : يا قوم لم آمركم بما أمرتكم به من توحيد الله و إخلاص الطاعة له دون الآلهة والأنداد خروجا منى عن محجة الحق ، وضلالا عن سبيل الرشاد ، ولكنى رسول من رب العالمين إليكم ، أهديكم باتباعى إلى مايوصلكم إلى السعادة فى دنياكم وآخرتكم ، وأنقذكم من الهلاك الأبدى بالشرك بالله والمعاصى المدنسة للأنفس والمفسدة للأرواح .

ومن رحمة ربكم بكم ألا يدعكم فى عمايتكم وشرككم الذى ابتدعتموه بجهلكم

حتى يبين لكم الحق من الباطل على يد رسول من لدنه يسلك بكم السبيل السوى الموصل إلى النجاة .

(أبلغكم رسالات ربى) أى أرسلنى إليكم لأبلغكم ماضب إلىّ تبليغه من التوحيد والإيمان وباليوم الآخر والوحى والرسالة والملائكة والجنة والنار والآداب والمواعظ والأحكام العامة من عبادات ومعاملات إلى نحو ذلك .

(وأنصح لكم) بتحذيركم عقاب الله على كفركم به وتكذيبكم لى وردكم نصحى .

روى مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

(وأعلم من الله مالا تعلمون) أى وأنا فى هذا التبليغ وذلك النصح على علم من الله أوحاه إلىّ لاتعلمون منه شيئا ، كما أنى أعلم من أمر الله وشئونه ما لاتعلمون فى نظام هذا العالم وما ينتهى إليه ، كما أعلم ما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء - فإذا نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شرككم من إنزال العذاب بكم فى الدنيا إذا جحدتم وعاندتم ، فإنما أنصح لكم عن علم يقينى لاتعلمونه .

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) أى أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم ، ليحذركم عاقبة كفركم ويعلمكم بما أعد لكم من العذاب على ذلك ولتتقوا بهذا الإنذار مايسخط ربكم عليكم بالشرك فى عبادته ، والإفساد فى أرضه ، وليعدّكم بالتقوى لرحمته التى ترجى لكل من أجاب الدعوة واتقى .

وفى قوله : على رجل منكم، بيان لشبهتهم على الرسالة وهى أن الرسول بشر مثلهم ، فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك فى البشرية والصفات العامة يقتضى التساوى فى جميع الخصائص والمزايا ويمنع الانفراد بشىء منها ، والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية ، فالتفاوت فى الغرائز والصفات الفاضلة والاختلاف فى القوى

العقلية والمعارف والأعمال الكسبية ـ جد عظيم فى البشر ، وليس فى الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان فى ذلك ـ إلى أنه لو فرض التساوى بينهم ، فهل هـذا يمنع أن يختص الله بعض عباده بما هو فوق المعهود فى الغرائز والمكتسب بالتعلم ؟ كلا ، إنه تعالى قدير على ذلك ، وقد قضت به مشيئته ، ونفذت به قدرته .

(فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك) أى فكذبه جمهورهم وأصرّوا على ذلك وخالفوا أمر ربهم ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، فأنجيناه من الغرق والذين سلكهم معه فى الفلك من المؤمنين : « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ » وقد جاءت القصة مفصلة فى سورة هود ، قيل كانت عدتهم ثلاث عشرة : نوح و بنوه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم وستة ممن كانوا آمنوا به .

(وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) أى وأغرقنا من كذب بآياتنا بالطوفان بسبب تكذيبهم ، وما كان ذلك التكذيب إلا لعمى بصائرهم الذى حال بينهم و بين الاعتبار بالآيات وفهمهم للدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته على إرسال الرسل وحكمته فى ذلك ، والثواب والعقاب فى يوم الجزاء ، يوم يحشر الناس لرب العالمين ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكنهم من شدة العذاب حيارى .

قصص هود عليه السلام

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ؟ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ

نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؟ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) .

شرح المفردات

الأخ هنا : الأخ فى النسب ، وتقول العرب فى أخوة الجنس يا أخا العرب ، والسفاهة: خفة العقل، والآلاء واحدها إلى : وهى النعمة، والرجس : العذاب، والغضب: الانتقام ، والمجادلة : المماراة والمخاصمة ، والسلطان : الحجة والدليل ، والدابر : الآخر ، ويراد به الاستئصال أى أهلكناهم جميعا .

المعنى الجملى

أخرج ابن إسحق من طريق الكلبى قال : إن عادا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها ــ اتخذوها على مثال ود وسواع ويغوث ونسر ، فاتخذوا صنما يقال له صمود وآخر يقال له الهتّار ، فبعث الله إليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان

من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » .

وكانت منازلهم بالأحقاف - الرمل - فيما بين عُمَان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله اهـ .

الإيضاح

(وإلى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم فى النسب هودا ، والحكمة فى كون رسول القوم منهم أن يُفهمهم ويفهم منهم ، وأن يكونوا أقرب إلى إجابة دعوته لمعرفتهم شمائله وأخلاقه .

(قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى قال هود لهم : يا قوم أفردوا العبادة لله ولا تجعلوا معه إلها غيره .

(أفلا تتقون) ربكم وتبتعدون عما يسخطه من الشرك والمعاصى لتنجوا من عقابه ؟ وجاء فى سورة هود : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وقد يكون قال لهم هذا وذاك فى وقت واحد ، أو يكون قد قال لهم هذا مرة وذاك أخرى .

(قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى قال الملأ الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة هود إليهم : إنا لنراك فى ضلال عن الحق والصواب بتركك ديننا وعبادة آلهتنا الذين اتخذت لهم الأمة الصور والتماثيل تخليدا لذكراهم والتقرب بشفاعتهم إلى ربنا وربهم .

ووصف الملأ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح ، لأن منهم من كان قد آمن .

(وإنا لنظنك من الكاذبين) فى قيلك إنى رسول من رب العالمين ، وفى قولهم هذا إيماء إلى تكذيبهم كل رسول ، إذ هم قد عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحدا منهم .

(قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) أى ليس بى أىّ ضلالة عن الحق والصواب كما تدّعون ، ولكنى رسول من رب العالمين أرسلنى إليكم ، لأبلغكم رسالات ربى وأؤديها إليكم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا يختار لها إلا من عرفوا برجحان العقل وحصافة الرأى وكمال الصدق .

ثم بين وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيما بلغ فقال :

(أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) أى أبلغكم ما أرسلت به من التكاليف ، وإنى ناصح لكم فيما أبلغكم إياه وأدعوكم إليه ، أمين فيما أبلغ عن الله ، فلا أكذب عليه فى وحيه إلىّ .

وفى إجابة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم بتلك الإجابة الصادرة عن الحكمة والإغضاء عما قالوا من وصفهم إياهم بالسفاهة والضلالة — أدب حسن وخلق عظيم وتعليم لعباده كيف يقابلون السفهاء ، وكيف يغضون عن قالة السوء التى تصدر عنهم .

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟) أى أكذبتم وعجبتم أن أنزل ربكم وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على لسان رجل منكم لينذركم بأسه ويخوفكم عقابه ؟.

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) أى واذكروا فضل الله عليكم ونعمته ، إذ جعلكم ورثة قوم نوح وزادكم بسطة فى خلق أبدانكم (وقد كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان) واتقوا الله فى أنفسكم واحذروا أن يحل بكم من العذاب مثل ما حل بهم ، فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سنته فيهم ، وقد جاء فى سورة هود والشعراء وفصلت مايدل على ما كان لهم من قوة وجبروت وبطش شديد .

(فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) أى فاذكروا نعم الله وفضله عليكم ، واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به ، وهجر الأوثان والأصنام

لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين لنعمه ، الراجين للمزيد منها ، وتدركون الخلود والبقاء والنعيم الأبدى فى دار القرار .

ثم ذكر ماردوا به عليه فقال :

(قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يقال : جاء يعلم الناس كيف يحاربون ، وذهب يقيم قواعد العمران ، على معنى شرع يفعل ذلك .

والمعنى — أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء وهم الوسيلة عنده ، وهم الذين يقربوننا إليه زلفى ، وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم .

وبعد أن استنكروا التوحيد واحتجوا عليه بما لا يصلح عقلا ولا شرعا أن يكون حجة من تقليد الآباء والأجداد استعملوا الوعيد فقالوا .

(فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الإيمان بك ، والعمل بما جئت به من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده — إن كنت صادقا فى قولك ووعيدك .

فأجابهم هود على مقالتهم بقوله :

(قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أى قال هود لقومه : قد قضى عليكم ربكم مالك أمركم بعذاب وطرد من رحمته ، وقد كان عذابهم ريحا صرصرا (ذات صوت شديد) عاتية تنزع الناس من الأرض ثم ترميهم بها صرعى (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) أى قد قلع من منابته ، وزال من أماكنه .

(أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان ؟) أى أتخاصموننى فى أسماء وضعتموها أنتم وآباؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولاهدى منكم ولامنهم، لمسميات اتخذوها فاتخذتموها آلهة زاعمين أنها تقربكم إلى الله زلفى وتشفع عنده لكم ، ماأنزل الله من حجة ولابرهان يصدق زعمكم بأنه رضى أن تكون واسطة بينه

و بينكم ، وكيف وهو الواحد الأحد الذى يصمد إليه عباده فى العبادة ، وطلب مالم يمكنهم بالأسباب العادية .

والخلاصة — إنه هو الذى يتوجه إليه وحده ، ولا يشرك معه أحد من خلقه كما قال إبراهيم : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وكل ما يتعلق بعبادة الله لا يعلم إلا بوحى منه ينزله على رسله ؟ إذ لا يعلم إلا من عباده المبلغين عنه .

(فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى فانتظروا نزول العذاب الذى طلبتموه بقولكم (فأتنا بما تعدنا) إنى معكم من المنتظرين لنزوله بكم ، وفصل قضائه فينا وفيكم ، و إننى لموقن بذلك وأنتم مرتابون .

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) أى فلما جاء أمرنا ووقع ما وقع ـ أنجينا هودا والذين آمنوا به وبما دعا إليه من توحيد الله وهجر الأوثان ـ برحمة عظيمة منا ، واستأصلنا دابر الذين جحدوا بآياتنا ولم نبق منهم أحدا بريح صرصر عاتية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ » .

قصص صالح عليه السلام

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا

وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) .

شرح المفردات

ثمود : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح؛ وأخوّة صالح لهم: أخوة فى النسب كأخوة هود لقومه ، والبينة: المعجزة الظاهرة الدلالة ، واذكروا أى تذكروا ، وبوأكم فى الأرض أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ، والأرض: أرض الحجر بين الحجاز والشام، والنحت : نجر الشيء الصلب، والعيث والعثى: الفساد ، استكبروا: عتوا وتكبروا ، وعقروا الناقة: نحروها ، وأصل العقر الجرح، وعقر الإبل: قطع قوائمها ، وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ، وعتوا : تمردوا مستكبرين ، والعتوّ: التمرد ، والامتناع إما عن عجز وضعف، ومنه عتا الشيخ عتيا: إذا أسنّ وكبر ، وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين ، ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود ، الرجفة : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه ، ورجفت

الأرض: زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف، ودار الرجل: مايسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا لاحراك بهم ، قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

الإيضاح

(وإلى ثمود أخاهم صالحا) أى ولقد أرسلنا إلى بنى ثمود أخاهم صالحا .

(قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى قال صالح لثمود : ياقوم اعبدوا الله وحده لاشريك له ، فما لكم من إله تعبدونه سواه .

(قد جاءتكم بينة من ربكم) أى قد جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما أقول وحقيقة ما أدعو إليه من إخلاص التوحيد له وإفراده بالعبادة دون سواه .

وفى قوله : من ربكم، إيماء إلى أنها ليست من فعله ، ولا مما ينالها كسبه. وهكذا سائر مايؤيد به الله الرسل من خوارق العادات .

وهذه المقالة كانت لهم بعد نصحهم وتذكيرهم بنعم الله وتكذيبهم له كما جاء فى سورة هود من قوله : « هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » إلى آخر الآيات .

(هذه ناقة الله لكم آية) أضاف الناقة إلى الله تعظيما لشأنها ، ولأنها لم تأت بنتاج معتاد وأسباب معهودة ، ومن ثم كانت آية . وأىّ آية ؟.

وإنما استشهد صالح على صحة نبوته بالناقة ، لأنهم سألوه إياها آية دالة على صدق دعوته وصحة نبوته .

ثم ذكر ما يترتب على كونها آية أنه لاينبغى التعرض لها فقال :

(فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) أى إن الأرض أرض الله والناقة ناقة الله ، فاتركوها تأكل ما تأكل فى أرض ربها ، وليس لكم أن تحولوا بينها وبينها ، ولا تتعرضوا لها بسوء فى نفسها ولا فى أكلها ،

فإنكم إن فعلتم ذلك أخذكم عذاب أليم ، وقد وصف فى سورة هود بالعذاب القريب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بالسوء ، وكذلك كان ، وجاء فى سورة القمر : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ » .

وجاء تفسير هذا فى سورة الشعراء : « هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » أى إن الماء الذى كانوا يشربون منه قسمة بينهم وبين الناقة ، إذ كان ماء قليلا ، فكانوا يشربونه يوما وتشرب هى يوما ، وقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها .

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم وبوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده فقال :

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) أى وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورا زاهية ، ودورا عالية ، بما ألهمكم من حذق فى الصناعة ، فجعلكم تضربون اللبن وتحرقونه آجرا (الطوب المحرق) وتستعملون الجص وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة ، وتنحتون من الجبال بيوتا ، إذ علمكم صناعة النحت ، وآتاكم القوة والجلد .

روى أنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول فى باقى الفصول للزراعة والعمل.

(فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى وتذكروا هذه النعم العظام ، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة ، ولاتتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل مالايرضى الله الذى خلقها لكم ، فما بالكم بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون

أن صالحا مرسل من ربه ؟) قد جرت سنة الله أن يكون الفقراء المستضعفون أسرع الناس إلى إجابة دعوة الأنبياء والرسل ، وإلى كل دعوة لإصلاح ، فإنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وأن يكفر بها أكابر القوم وأغنياؤهم المترفون ، إذ يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين لسواهم ، كما يصعب عليهم الامتناع عن الإسراف فى الشهوات ، والوقوف عند حدود الاعتدال .

وعلى هـذا السنن سار الملأ من قوم صالح إذ قالوا للمؤمنين منهم : أتعلمون أن صالحا رسول من عند الله ؟ ومرادهم بهذا التهكم والاستهزاء بهم .

(قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) أى إنا بما أرسل به صالح من الحق والهدى مصدقون ومقرون بأنه من عند الله ، وأن الله أمر به ، وعن أمر الله دعانا صالح .

وفى جوابهم هذا دون أن يقولوا ـ نعم ، أو نعلم أنه مرسل منه ، أو إنا برسالته عالمون ـ إيماء إلى أنهم علموا بذلك علما يقينيا إذعانيا له السلطان على عقولهم وقلوبهم وما كل من يعلم شيئا يصل علمه إلى هـذه المرتبة ، بل من الناس من يعلم الشىء بالبرهان ، لكنه يجحده و يماري به وهو موقن به حسدا لأهله ، أو استكبارا عنه كما قال تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

(قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) أى قال الذين استكبروا عن أمر الله وأمر رسوله صالح : إنا بالذى صدقتم به من نبوة صالح وإن الذى جاء به هو الحق ـ جاحدون منكرون لا نصدق به ولا نقر .

و إنما لم يقولوا إنا بالذى أرسل به صالح كافرون ـ لأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة ، فلو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بجحود الحق على علمهم به استكبارا وعنادا .

ثم ذكر مافعلوه مما يدل على كفرهم بآيات ربهم فقال :

(فعقروا الناقة) أى فعقر أولئك المستكبرون الناقة ، ونسب الفعل إليهم جميعا والفاعل واحد منهم كما جاء فى سورة القمر : « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »

وجاء فى حديث البخارى مرفوعا «فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة فى قومه كأبى زمعة» لأنهم لما اتفقوا عليه ورضوا به صاروا كأنهم فعلوه جميعا .

وفى ذلك تهويل وتفظيع لأمرهم ، وأن أضراره ستصيبهم جميعا ، ومثل هذا من الأعمال ينسب إلى الأمة فى جملتها ، وتعاقب عليه جميعها كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(وعتوا عن أمر ربهم) أى وتمردوا وتجبروا عن اتباع الحق الذى بلغهم صالح إياه ، وهو ما سلف ذكره .

روى أحمد والحاكم عن جابر قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر قال (لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله — وهو أبو رغال — فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)» .

(وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) الوعد يكون فى الخير والشر أى قالوا له : ائتنا بما وعدتنا به من عذاب الله ونقمته ، إن كنت رسولا إلينا ، وتدعى أن وعيدك تبليغ عنه ، فالله ينصر رسله على أعدائه ، فعجل ذلك لنا .

(فأخذتهم الرجفة) وفى سورة هود « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » وفى سورة حم السجدة « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ » وفى سورة الذاريات « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » والمراد بالجميع الصاعقة ، فإن لنزولها صيحة شديدة القوة ترجف من هولها الأفئدة وتضطرب الأعصاب ، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان .

وقد علم أن سبب حدوثها اتصال كهربائية الأرض بكهربائية الجو التى يحملها

السحاب ، فتحدث صوتا كالصوت الذى يحدث باشتعال قذائف المدافع ، وهذا الصوت هو المسمى بالرعد .

وتحدث الصاعقة تأثيرات عظيمة كصعق الناس والحيوان وهدم المبانى أو تصديعها و إحراق الشجر ونحو ذلك ، وقد هدى العلم إلى الطريق فى اتقاء أضرارها بالمبانى العظيمة بوضع ما يسمونه (مانعة الصواعق) .

وقد يجوز أن الله سبحانه جعل هلاكهم فى وقت ساق فيه السحاب المشبع بالكهرباء إلى أرضهم على حسب السنن المعروفة ، وقد يجوز أن الله قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيهما كان قد وقع ، فقد صدق الله رسوله وحدث ما أنذرهم به.

(فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى لم يلبثوا أن سقطوا مصعوقين جثثا هامدة حين نزلت بهم الصيحة فى أرضهم .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) أى قال لهم صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتما متحسرا كما يقول المتحسر على من مات جانيا على حياته بالتفانى فى شهواته : ألم أنهك عما يوردك ريب المنون . ألم أحذرك تلك العاقبة الوخيمة التى لم تتداركها قبل وقوعها ، فماذا أفعل ، إذ فضلت لذة الساعات والأيام على عيش هنىء يدوم عشرات الأعوام .

وروى مثل هذا مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم من ندائه بعض قتلى قريش ببدر بعد دفنهم فى القَلِيب (البئر غير المبنية) .

« يا فلان بن فلان ، وفلان بن فلان : أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » قال راوى الحديث أبو طلحة الأنصارى : قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟

أو فيها — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » رواه البخارى وغيره عن طريق قتادة عن أبى طلحة الأنصارى رضى الله عنه ، ثم قال : قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وسلم توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما اه . قال العلماء ومثل هذا مما اختص به الأنبياء . وبهذا الحديث ونحوه مما ورد من حياة الأنبياء والشهداء فى البرزخ ، يستدل زوار الأضرحة والقبور الذين يدعون أصحابها لقضاء حاجاتهم ويقولون : إن كل من دعا ميتا من الصالحين يسمع منه ويقضى حاجته ، قياسا على ذلك ، مع علمهم بأن الأمور الغيبية يقتصر فيها على ماسمع عن الأنبياء ولا يدخلها باب القياس .

قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) .

شرح المفردات

لوط : هو لوط بن هاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ولد فى (أور الكلدانيين) فى الطرف الشرقى من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى مابين النهرين وكان يسمى جزيرة

قورا ، وهناك كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لجودة مراعيها ، وكان فى ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط فى إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبائث ، ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، و بعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك .

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ؟) أى واذكر لوطا حين قال لقومه موبخا لهم : أتفعلون تلك الفعلة التى بلغت الغاية فى القبح والفحش .

(ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى ما عملها أحد قبلكم فى أى زمان ، بل هى من مبتدعاتكم فى الفساد ، فأنتم فيها أسوة وقدوة ، فتبوءون بإثمها و إثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة .

وفى هذا بيان لأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة ، ومن ثم لم تتطلع إليه نفوس أحد من البشر قبلهم ، إلى ما فيه من مخالفة لهدى الدين .

(إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يراد بالإتيان الاستمتاع الذى عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين ، وداعيته الشهوة وقصد النسل .

وقد سجل عليهم هنا أنهم يبتغون الشهوة وحدها ، فهم أخس من سائر أفراد الحيوان ، لأن الذكور منها تطلب الإناث بدافع الشهوة والنسل الذى يحفظ النوع ، ألا ترى أن الطيور والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء الأعشاش فى أعلى الأشجار أو الوُكُن فى قلل الجبال أو الأجحار فى باطن الأرضين ، ولكن هؤلاء المجرمين لا غرض لهم إلا إرضاء شهواتهم ، ومن يقصد اللذة وحدها دون النسل أسرف فيها وانقلب نفعها ضرا وصار خيرها شرا .

وفى هذا مزيد تقريع وتوبيخ لهم ، كأن ذلك لا ينبغى أن يصدر من أحد .

وفى قوله: من دون النساء ، إيماء إلى أنهم تجاوزوا النساء اللاتى هن محل الاشتهاء عند ذوى الفطر السليمة إلى غيرهن .

(بل أنتم قوم مسرفون) أى إنكم لا تأتون هـذه الفاحشة ثم تندمون على ما فعلتم ، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ولا تقفون فيها عند حد الاعتدال ، وقد جاء فى سورة النمل « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى أنتم ذوو سفه وطيش ، وفى سورة العنكبوت «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » .

وفى كل هذا دليل على أنهم كانوا مسرفين فى لذاتهم ، متعدين حدود العقل والفطرة ، لا يعقلون ضرر ما يفعلون بجنايتهم على النسل والصحة والآداب العامة ، فهم لو عقلوا ذلك لاجتنبوها ، ولو كان لديهم شىء من الفضيلة لانصرفوا عنها .

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) أى وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئا من الحجج المقنعة أو الأعذار المسكتة لثورة الغضب ، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم ، وما حجتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا إن هؤلاء أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتهم فى فسوقهم ورجسهم ، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم ، لما بينهم من الفوارق فى الصفات والأخلاق .

وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهكم ، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظوهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد .

وقد بلغ من قِحَتهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها ويحتقروا من يتنزه عنها ، وهذا أسفل الدركات ، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

(فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) يقال غبر أى بقى ، وغبر : ذهب

وهلاك ، أى فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته ، فإنها لم تؤمن به ، بل خانته بولاية قومه الكافرين ، فكانت من جماعة الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب فى الدنيا ، وبعده عذاب الآخرة .

(وأمطرنا عليهم مطرا) الإمطار حقيقة فى المطر مجاز فيما يشبهه فى الكثرة من خير وشر مما يجيء من السماء أو من الأرض أى وأرسلنا عليهم مطرا عجيبا أمره وهو الحجارة التى رجموا بها ، وجاء فى سورتى هود والحجر إنها حجارة من سجيل مسوّمة أى معلمة ببياض فى حمرة .

وقد يكون سبب إمطار الحجارة عليهم إرسال إعصار من الريح حمل تلك الحجارة وألقاها عليهم ، أوأن تلك الحجارة من بعض النجوم المحطمة التى يسميها علماء الفلك الحجارة النيزكية وهى بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها إذا صار بالقرب منها ، وهى تحترق غالبا من سرعة الجذب وشدته ، وهى الشهب التى ترى بالليل ، فإذا سلم منها شيء من الاحتراق ووصل إلى الأرض ساخ فيها وكان لسقوطه صوت شديد ، وقد وجد الناس بعض هذه الحجارة ووضعوها فى دور الآثار .

(فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) أى فانظر أيها المعتبر هذا القصص وتأمله حق التأمل ، لتعلم عقاب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة .

وهذا العقاب أثر طبيعى لذلك ، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم ويذهبان ببأسها ويفرقان كلمتها ويجعلانها شيعا وأحزابا متعادية ، فيسلط الله عليها من يستذلها ويسلبها استقلالها ، ويسخرها لمنافعه ، ولايزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من الهالكين .

وقد يكون هلاكها بسنن الله فى الأرض من إرسال الجوائح كالزلازل والمواد المصطهرة التى تقذفها البراكين من الأرض ، أو بالأوبئة والأمراض الفتاكة ، أو بالثورات والفتن والحروب ونحو ذلك مما يكون سببا فى انقراض الأمم وفنائها

وخلاصة القول فى تحريم هذه الفاحشة :

(١) إنها مفسدة للشبان بالإسراف فى الشهوات .

(٢) إنها مفسدة للنساء اللواتى ينصرف أزواجهم عنهن ويقصرون فيما يجب عليهم من إحصانهن .

(٣) قلة النسل فإن من لوازم ذلك الرغبة عن الزواج والرغبة فى إتيان الأزواج فى غير مأتى الحرث .

وفى الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين للآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه وجعل ذلك وسيلة للحياة الوالدية التى تنمو بها الأمة ويحفظ بها النوع البشرى من الزوال .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) .

شرح المفردات

يقال بخسه حقه أى نقصه ، والإفساد : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق والآداب : بارتكاب الإثم والفواحش ،

و إفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، و إصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران المحسنة لأحوال المعيشة ، والصراط : الطريق ، وتوعدون: تخوفون الناس ، وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعيبا كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم ، فكثركم أى بما بارك فى نسلكم .

المعنى الجملى

شعيب نبى من أنبياء العرب ، وفى التوراة إن اسمه رعوئيل ؛ فقد جاء فى سفر الخروج أن حمى موسى كان يدعى رعوئيل .

(رعو: صديق ، وئيل: الله) أى صديق الله أى الصادق فى عبادته ، وفى موضع آخر من سفر الخروج إن موسى كان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مدين ، و يثرون لقب وظيفته ، وهو من نسل إبراهيم .

وفى الفصل الخامس من سفر التكوين إن زوجة إبراهيم قطورة ولدت له ستة أولاد منهم مدان أو مدين أو مديان (معناه خصام) وكانت أرضهم تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سينا ، وفى رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سينا إلى الفرات .

وقال الألوسى : ومدين وسمع مديان علم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم سميت به القبيلة .

الإيضاح

(و إلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) تقدم مثل هذا فى قصة صالح عليه السلام ، ولكن هناك بين الآية

بأنها الناقة ، ولم يذكر هنا ولا فى أى سورة أخرى آية معينة لشعيب عليه السلام ، ولكن لابد أن تكون له آية تدل على صدقه ، وتقوم بها الحجة عليهم .

فقد روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » أى إن كل نبى مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله .

والبينة كل ما يتبين به الحق ، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية ، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات .

وبعد أن أتى شعيب صلوات الله عليه بالمعجزات القاطعة للعذر ومكابرة الحق رتب على ذلك قوله :

(فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وقد ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا ، والنهى عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا بعد أن أمرهم بتوحيد الله ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصى ومن ثم اهتم به كما اهتم لوط بنهى قومه عن الفاحشة السوءى التى كانت فاشية فيهم ، فقد كانوا من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أى ينقصونه فيبخسونهم أشياءهم وينقصونهم حقوقهم .

والبخس يشمل نقص المكيل والموزون وغيرهما من المبيعات كالمواشى والأشياء المعدودة ، ويشمل البخس فى المساومة والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق ، وفى الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل .

وقد فشا كل من هذين النوعين فى هذا العصر ، فكثير من التجار باخسون مطففون فيما يبيعون وما يشترون ، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة بخاسون لحقوق بنى جلدتهم ، مدعون للتفوق عليهم ، منكرون لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسدا عليهم و بغيا .

وقد روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه و يقولون هذه زيوف فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس أى بالنقصان .

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أى إنه تعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة ، ومكنهم فى الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح ، و بما أودع فى خلق الأرض من سنن حكيمة ، وقوانين مستقيمة ، و بما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم فى المعاملات والاجتماع ، و بما أرشد إليه المصلحين من العلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط ، و يهدون الناس إلى مافيه صلاحهم فى دينهم ، والعاملين من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة الذين ينفعون الناس فى دنياهم .

فعليكم ألا تفسدوا فيها ببغى ولاعدوان على الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش ، ولاتفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام و بث الخرافات والجهالات التى تقوض نظم المجتمع ، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما يستفاد من هذه الآية وما بعدها .

(ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) أى ذلكم الذى تقدم من الأمر والنهى خير لكم فى دينكم ودنياكم ، فإن ربكم لايأمر إلا بالنافع ولاينهى إلا عن الضار .

و إنما يكون ذلك خيرا لكم إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله و برسوله و بما جاءكم من شرع و بما آتاكم به من هدى ، فالإيمان يقتضى الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله و إن خالف النفس والهوى .

والمؤمن الموحد لايخضع إلا لربه ، وإنما يطيع رسوله لأنه مبلغ عنه كما قال : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » وفى حديث أحمد بن خديج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إنما أنا بشر مثلكم، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

هذا والبشر لم يصلوا فى عصر من العصور إلى عشر ما وصلوا إليه فى هذا العصر من العلم بالمنافع والمضار ومعرفة المصالح والمفاسد فى المعاملات والآداب ، ومع هذا فإن العلم وحده لم يغنهم شيئا ، فكثرت فى البلاد الجرائم من قتل وسلب وإفساد زرع وفسق وفجور ونحو ذلك مما كان سببا فى تدهور نظم المجتمعات .

فخير وسيلة لإصلاح الأمم تربية الأحداث والنابتة تربية دينية بإقناعهم بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل ، وإقناعهم بمضار الرذائل ، لأن الوازع النفسى أقوى من الوازع الخارجى .

(ولاتقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) أى ولاتقعدوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل، وقد روى عن ابن عباس أن بلادهم كانت خصبة وكان الناس يمتارون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا ويقولون لهم إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم .

وقد رتب سبحانه هذه الأوامر والنواهى على حسب الترتيب الزمنى ، فوجهت الدعوة أولا إلى أقرب الناس فى بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب من الذين يزورون أرضهم ، وقد كان الأقربون داراً هم الأبعدين استجابة له ، وحين رأوا غيرهم يقبل دعوته ويهتدى بها شرعوا يصدون الناس عنه فلا يدعون طريقا توصل إليه إلا قعد بها من يتوعد سالكيها إليه ، ويصدونهم عن سبيل الله التى يدعوهم إليها ، ويطالبون بالتمويه والتضليل أن يجعلوا استقامتها عوجا ، وهداها ضلالا .

والخلاصة — إنه نهاهم عن أشياء ثلاثة :

(١) قعودهم على الطرقات التى توصل إليه مخوفين من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته .

(٢) صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين .

(٣) ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها ، وهم بعملهم هذا ارتكبوا ضلالتين التقليد والعصبية للآباء والأجداد ، وضلالة الغلوّ فى الحرية الشخصية التى أباحت لهم الطعن فى الأديان حتى بلغوا فى ذلك حد الطغيان .

(واذكروا إذ كنتم قليلا فكثّركم) أى وتذكروا الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بما بارك فى نسلكم ، واشكروا له ذلك بعبادته وحده ، واتباع وصاياه فى الحق ، والإعراض عن الفساد فى الأرض . وقد روى أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها البركة والنماء فكثروا .

وقد يكون المعنى — إذ كنتم مقلين فقراء فجعلكم مكثرين موسرين — أو المراد : إذ كنتم أذلة قليلى العدد فأعزكم بكثرة العدد والعُدد .

(وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح وعاد وثمود ، وكيف أهلكهم الله بفسادهم وبغيهم فى الأرض ، فاعتبروا بما حل بهم ، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

(وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) حكم الله بين عباده ضربان :

(١) حكم شرعى يوحيه إلى رسله ، وعليه جاء قوله فى سورة المائدة بعد الأمر بالوفاء بالعقود وإحلال بهيمة الأنعام : « إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » .

(٢) حكم فعلى يفصل فيه بين الخلق بمقتضى سننه فيهم كقوله فى آخر سورة يونس : « وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

والمعنى — وإن كان جماعة منكم صدقوا بالذى أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم فى المكاييل والموازين ، واتبعونى فى كل ذلك ، وجماعة أخرى لم يصدقونى وأصروا على شركهم وإفسادهم ـ فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ، وهو خير من يفصل ، وأعدل من يقضى ، لتنزهه عن الباطل والجور ، وليعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم وسيحل بهم مثل ما حل بأولئك على حسب السنن التى قدرها العليم الحكيم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

اللهم وفقنا للسير على سنن العدل والرشاد ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء فى الثامن عشر من رجب المعظم سنة ثنتين وستين وثلثمائة هجرية .

وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء